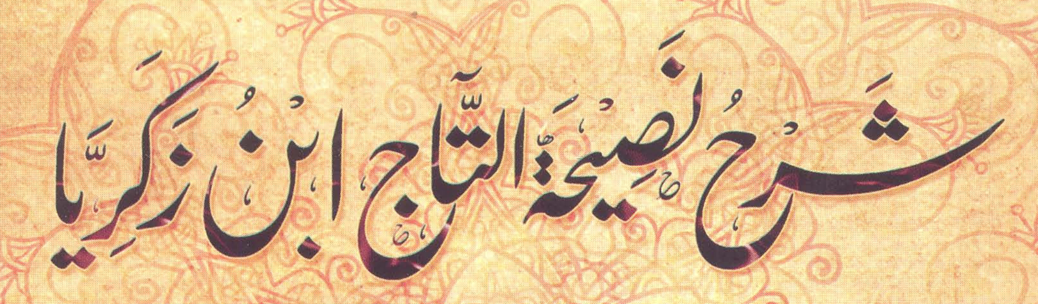


شَرحُ نَصِيحَةِ التَّاجِ ابنُ زكرِيَّا

وَيَلِيهِ

سُلَّم الأَفَاضِل إلى مَعْرِفَةِ رُؤُوسِ الفَضَائِلِ

تصنيف الإمام العلامة

برهان الدين إبراهيم بن حسن الملا الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٠٤٨هـ - رحمه الله تعالى

تحقيق

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا



شرح

نصيحة التاج ابن زكريا

تصنيف

الإمام العلامة برهان الدين إبراهيم بن حسن الملا

الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٠٤٨ هـ رحمه الله تعالى

تحقيق

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا



شرح

نصيحة التاج ابن زكريا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بكماله، وعظيم جلاله، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، بدأتَ كتابك بالرحمة العامة والخاصة، وافتتحته بالحمد الشامل الجامع للمحامد كلها، فأنت سبحانك المحمود بكل لسان، وفي كل حال وأوان. وأصلي وأسلم على إمام الهدى، والرحمة المهداة، وعلى آله وصحبه السائرين على منهاجه القويم، وسلم تسليماً، وبعد:

فإنَّ من أجلِّ نعمِ اللهِ على هذه الأمة؛ أن قيض لها رجالاً يأخذون بيد أبنائها، ويدلونهم على الله، ويذكرونهم بما غفلوا عنه من هذه الشريعة، وكان من أولئك الرجال الداعية إلى الله في السر والجهر؛ « **تاج الدين بن زكريا العثماني النقشبندي** »، والذي بين أيدينا نصيحته؛ التي وجهها إلى تلميذه الباشا علي، حاكم الأحساء، وهي وإن كانت قصيرة في مبناها، إلا أنها واسعة في معناها، إذ أن المؤلفات تتفاضل بالزهر والثمر لا بالكلام والهذر، وبخلاصة اللطائف لا بكثرة الصحائف، وقد قام بشرحها الداعي

إلى الله، تلميذه الإمام برهان الدين إبراهيم بن حسن الملا الحنفي الأحسائي، وقد استقى مادتها من الكتاب والسنة، وأقوال أئمة هذه الأمة. وحرصاً منا على نشر كل ما فيه نفع للأمة؛ توجهت رغبتنا في إخراج هذه الرسالة؛ لما اشتملت عليه من فوائد وتوجيهات يحتاج إليها الشباب، وخاصة في الأيام الحاضرة؛ التي نجد فيها اضطراباً عظيماً في قيمنا الخُلُقية، ونوعاً من الانفصامية، والتشتت في سلوكياتنا العملية، بين ما نريده في داخلنا وبين ما نفعله في الواقع.

ولعلَّ من أهم أسباب ذلك: تَركنا لما كان عليه نهج سلف هذه الأمة، والسير خلف المدنية الحديثة الكاذبة؛ بدعوى مسايرة الاتجاهات الفكرية في العالم المتحضر، الممسك بزمام الفكر والتقدم الصناعي.

وهذه النصيحة وشرحها الذي بين يديك؛ يقدم لنا شكلاً من أشكال السلوك الإسلامي ومجموعة من المبادئ الخلقية

والإسلامية، التي كادت أن تنسينا إياها الحياة المادية؛ التي يعيشها العالم في وقتنا الحاضر.

وإن من أهم الأسباب التي ساهمت في تخلف الأمة، وابتعادها عن منهج السلف الصالح؛ غياب المربين الفضلاء عن الشباب المسلم. ولكن فيما كتبوه وحرروه سلوة، وإن كانت الأمة لا تستغني في كل زمان ومكان عن الدعاة والأدلاء على الله.

[صور المخطوط]

وقد اعتمدت في إخراج شرح هذه النصيحة عن صورة لمخطوطتين الأولى: لم يكتب ناسخها اسمه ولا تاريخ النسخ وهي نسخة كاملة ولعلها بخط المؤلف ولعل كاتب الأسطر الأخيرة منها الشيخ عبدالله بن أبي بكر الملا.

وعدد صفحاتها (٢٧) في كل صفحة (٢٢) سطراً تقريباً.

والثانية: لم يَكتب أيضاً الناسخ اسمه في آخر الكتاب كما هو المعتاد، وكذلك تاريخ النسخ، وعدد صفحاتها (١٦) صفحةً وفي كل صفحة (٢٧) سطراً تقريباً.

[عملي في الكتاب]

قمت بتخريج الآيات والأحاديث الشريفة، وترجمت للأعلام المذكورين في الكتاب؛ ليتعرف القارئ على هؤلاء الرجال الذين نقل عنهم الشارح، واستشهد بأقوالهم، ويستطيع الرجوع إليها في مواضعها إن أراد التوسع.

ورأيت من الواجب؛ أن أقدم بين يدي الكتاب ترجمةً مختصرةً لكلٍ من صاحب النصيحة، والموجهة إليه، وشارحها.

وإتماماً للفائدة ألحقت به رسالة أخرى وهي: "**سلم الأفاضل إلى معرفة رؤوس الفضائل**" للمؤلف الشيخ إبراهيم بن حسن الملا رحمه الله.

واللهَ أسألُ أن ينفعَ بهذا العمل، وأن يجعلَه خالصاً لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأحساء — وكتبه المفتقر إلى عفو المولى

١/ ٤/ ١٤٢٣هـ — يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا

ترجمة

العارف بالله تاج الدين بن زكريا

اسمه:

هو الإمام العارف بالله والدال عليه تاج الدين بن زكريا بن سلطان العثماني النقشبندي الحنفي السنبهلي.

مولده ونشأته:

ولد ونشأ في بلدة سنبهل[١] من بلاد الهند.

طلبه للعلم:

قرأ العلم على شيوخ بلده ثم ساح البلاد في طلب الشيخ العارف، حتى وصل إلى أجمير فأخذ من روحانية الشيخ معين الدين حسن الأجميري، ثم رحل إلى ناكبور وأقام بها يشتغل بالذكر مدة مديدة، ثم خرج سائحاً في أرض الله الواسعة حتى

---

(١) مدينة سنبهل تقع في الهند التابع لمديرية (مراد أباد) بوِلاية يوبي وهي مدينة منتجة للرجال والعلماء والدعاة المصلحين.

وصل إلى الشيخ إله بخش الشطاري، فتلقاه الشيخ بخش بالقبول وأظهر أنه كان منتظراً له، فلازمه مدة من الزمن، وكان يقوم بالخدمة وحمل الماء إلى المطبخ ثلاثة أيام فكان يحمل فوق طاقته وتظهر منه خوارق في تلك الأيام، وبعد ثلاثة أشهر أمره الشيخ بملازمة الذكر فاشتغل به، ولم يزل في خدمته وملازمة الذكر حتى حصلت له الإجازة من الشيخ، وكان خدم الشيخ عشر سنين.

ثم عاد إلى بلده سنبهل ولما وصل الشيخ الأجل محمد عبد الباقي النقشبندي بلاهور كتب إليه كتاباً وكان الشيخ تاج الدين في سنبهل، فعزم على زيارته، فلما وصل إليه توجه وجلس بين يديه، فأجازه الشيخ بعد أن صار أهلا لديه فأذن له بتربية المريدين وتوجيه عباد الله إلى الحق واليقين، وكانت بينهما مودة شديدة، فلما توفي الشيخ عبد الباقي رحمه الله تعالى اغتم بموته وحزن عليه حزناً شديداً، وأخذ في السياحة، فسافر إلى بلاد الهند والعراق وغيرها من البلاد العربية، حتى وصل إلى الأحساء وتلقاه واليها علي باشا وجمع من علمائها ومكث عندهم مدة وأخذوا عنه وانتفعوا به وكان من بينهم العلامة الإمام المفتي

الشيخ إبراهيم بن حسن الملا، ثم رحل متنقلاً بين البلاد حتى ألقى عصا التسيار بمكة المكرمة، وسكن بها، وأخذ عنه خلق كثير من العلماء والمشايخ منهم:

الأستاذ أحمد أبو الوفاء العجل العجيل، وولده أحمد، والشيخ محمد مرزا بن محمد المعروف السروجي الدمشقي، والأمير يحيى بن علي باشا الأحسائي، ووالده علي باشا[١] حاكم الأحساء، والشيخ عبد الباقي بن زين المزجاجي الزبيدي، والشيخ عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن عبد الرحمن الحضرمي العيدروس، والشيخ محمد علان المكي، والشيخ إبراهيم بن حسن الملا الأحسائي، والشيخ أبو بكر بن سعيد بن أبي بكر الحضرمي، والشيخ عبيدالله بن محمد باقي الدهلوي، والسيد محمود بن أشرف الحسيني الأمروهوي وخلق آخرون.

---

(١) الموجه إليه النصيحة.

قال الشيخ أحمد النخلي المكي في بعض رسائله:

وهذا الشيخ تاج رحمه الله ونفعنا به كان ولياً لله عارفاً به، أقام بمكة المشرفة على حلول ألف وأربعين من الهجرة مدة مديدة، ومات بها. اهـ[١].

مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة منها: تعريب النفحات للعارف عبد الرحمن الجامي، وتعريب الرشحات، ورسالة في طريق السادة النقشبندية جمع فيها الكلمات المأثورة المروية عن حضرة الخواجه عبد الخالق الغجدواني، وشرحها، والصراط المستقيم، والنفحات الإلهية في موعظة النفس الزكية، وجامع الفؤاد، وله رسالة في أنواع الأطعمة وكيفية طبخها، ورسالة في كيفية غرس الأشجار، ورسالة أخرى في أنواع الطب، وقد أفرد ترجمته تلميذه السيد محمود بن أشرف الحسيني في رسالة سمَّاها:

---

(١) نقله الشيخ ولي الله الدهلوي عن شيخه أبي طاهر بن إبراهيم الكردي المدني.

(**تحفة السالكين في ذكر تاج العارفين**) وقد نقل المحبي في "خلاصة الأثر" عن الرسالة المذكورة أشياء من كشوفاته وكراماته لا نطيل الكلام بذكرها[١].

وفاته:

توفي قبل غروب شمس يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادي الأولى سنة (١٠٥٠هـ)، ودفن صبح يوم الخميس في تربة أعدها له في حياته في سفح جبل قعيقعان[٢]، رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) نزهة الخواطر (٢٢/ ١٣١) وخلاصة الأثر للمحبي.

(٢) قعيقعان كزعيفران جبل بمكة، ووجه تسميته: لأن جرهم كانت تضع فيه أسلحتها فتقعقع فيه، أو لأنهم تحاربوا فقعقعوا بالسلاح، كما في خلاصة الأثر.

[ترجمة الشارح الشيخ إبراهيم بن حسن]

هو: الإمام العلامة، المشارك، المطلع، الحافظ، برهان الدين إبراهيم بن حسن الملا الحنفي الأحسائي، من أعلام القرن الحادي عشر.

ولد بالأحساء في حي الكوت، ولا نعلم سنة ولادته، والذي يظهر أن ولادته كانت في أوائل الثلث الأخير من القرن العاشر، أما وفاته فقد كانت في اليوم السابع من شوال في مدينة الأحساء سنة (١٠٤٨هـ).

نشأ الشيخ وترعرع على العفاف والصّلاح منذ نعومة أظفاره في حجر والده، وتحت رعاية أخيه لأمه الإمام المفتي الشيخ محمد بن المفتي ملا علي الواعظ، كما أخذ عن غيره من علماء الأحساء، ثم رحل إلى الحجاز في صحبة شيخه؛ الشيخ تاج الدين بن زكريا، حين قدم الأحساء، وأخذ عنه علماؤها، ثم أقام بمكة، والتقى أثناء إقامته بها كبار علماء الحرمين، ومن يفد إليها.

وصفه المحبي في "خلاصة الأثر" (١/ ١٤١٨) بقوله: الشيخ إبراهيم بن حسن الأحسائي الحنفي؛ من أكابر العلماء، الأئمة، المتحلين بالقناعة، المتخلين للطاعة، كان فقيهاً نحوياً، متفنناً في علوم كثيرة، قرأ ببلاده على شيوخ كثيرة، وأخذ بمكة عن فقيهها عبدالرحمن المرشدي، وكتب له إجازة حافلة، أشار فيها إلى تمكنه في العلوم، وأخذ الطريق عن العارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين؛ حين قدم الأحساء، وعنه الأمير يحيى علي باشا، وكان يثني عليه، ويخبر عنه بأخبار عجيبة ... وله مؤلفات كثيرة في فنون عديدة ... وله أشعار كثيرة. اهـ.

وقد وُصف رحمه الله: بالإمام العلامة البحر الفهامة، مفتي المسلمين، وصدر المدرسين، وعمدة المحققين.

كان له اطلاع واسع، ومعرفة جيدة وإتقان وقلم سيال، وفهم ثاقب.

وتخرج عليه عدة من العلماء، وألف تآليف عديدة مفيدة: لوضوحها وحسن أسلوبها. ولعل انشغال الشيخ رحمه الله بالفتوى

والتدريس والتوجيه والإرشاد حال دون التوسع في الكتابة تأليف، ومع ذلك فقد أثرى المؤلف - رحمه الله - المكتبة الإسلامية بكتبه ومؤلفاته القيمة في فن اللغة والأدب والفقه والتصوف، وغير ذلك. ومنها:

١- الأجوبة الابتسامية على الأسئلة البسامية في العقيدة. (مطبوع).
٢- وظيفة الناسك المعلمة في أوراد الإمام مبارك بن سلمة.
٣- هداية الناسك في أحكام المناسك.
٤- تحفة المبتدي وهو متن مختصر في أحكام الصلاة. (مطبوع).
٥- طرفة المهتدي شرح تحفة المبتدي. (تحت الطبع).
٦- دفع الأسى في أذكار الصباح والمساء. (مطبوع).
٧- بسط الكساء في شرح دفع الأسى. (تحت الطبع).
٨- شرح نصيحة التاج بن زكريا، وهي التي بين يديك.
٩- سلم الأفاضل إلى معرفة رؤوس الفضائل، وهي التي بين يديك.
١٠- الفتاوى الإبراهيمية وهي عبارة عن فتاوى للشيخ جمعها أحد أحفاده. (مطبوع).
١١- شرح المنظومة العمريطية في النحو.

١٢- تنقيح العمل في حل أبيات الجمل.

إلى آخر مؤلفات هذا الإمام.

وله أشعار كثيرة، منها: قصيدة في الشوق إلى بلد الهدى، ودار المجد والندى، طيبة الطيبة، التي لا تزال سحائب ذي الرحمة بها صيبة، على ساكنها أفضل صلاة وأزكى تسليم. قال رحمه الله:

يـــا بلـــدة طابـــت وطـــاب حماهـــا

وبطيبـــة خـــيرُ الـــورى سماهـــا

زادت علـــى كـــل الـــبلاد برتبـــة

ومناقـــب ســـبحان مـــن هيّاهـــا

شَـــرُفَت بأشـــرف مـــن مشـــى فـــوق الثـــرى

وتعطّـــرت مـــن طيبـــه أرجاهـــا

وتنافســـت أكنافهـــا بحلولـــه

لمّـــا بأشـــرف أخمصـــيه[1] وطاهـــا

وحـــوت ضـــريحاً ضـــمّ أكـــرمَ مرســـلٍ

فلـــذاك رب العـــرش قـــد أعلاهـــا

(١) الأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصل بالأرض (مختار الصحاح) (خ م ص).

فغُبارهـــا يـــبري الجُـــذام[1] وتُربهـــا
يشـــفي العليـــل وذاك بعـــض ســـناها
مـــن أجلـــها نفســـي غـــدت مشـــغوفةً
وتهالكـــت روحـــي علـــى ذكراهـــا
قـــد كنـــت في دهـــر مضـــى متـــرفلاً
في ربعهـــا وربيعهـــا و ذراهـــا
والعـــيش في رغـــد وســـعديَ مقبـــل
بـــي رحبـــة أكنافهـــا ورباهـــا
أغـــدو وأســـرع نحـــو أكـــرم مرســـل
والـــنفس حامـــدة علـــى مســـراها
حتـــى رُميـــت مـــن الزمـــان لشـــقوتي
بترحلـــي عنهـــا وعـــن ســـكناها

(١) وذلك لما ورد «غبار المدينة يبرأ من الجذام» وفي رواية «شفاء من الجذام» رواه ابن السني في الطب ورواه أبو نعيم في الطب والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٥١٩) عن ثابت بن قيس بن شماس مرفوعاً وفي الترغيب والترهيب للحافظ المنذري (١٨١٤) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، تلقاه رجال من المتخلفين من المؤمنين فأثاروا غباراً، فخمَّر، بعض من كان مع رسول الله ﷺ أنفه، فأزال رسول الله ﷺ اللثام عن وجهه وقال: «والذي نفسي بيده إن في غبارها شفاء من كل داء» قال: وأراه ذكر: «من الجذام والبرص» قال ذكره رزين العبدي في جامعه ولم أره في الأصول قال محقق الترغيب: الحديث حسن بشواهده. والله أعلم.

فالشوق مني نحوها لا ينثني

بمدامع تنهل من فرقاها

لولا التسلي بالوصال وإنني

يوماً عسى أحظى بلثم ثراها

لتمزقت نفسي على ما نالني

من بُعدها وتقطعت أحشاها

يا من به شرُفت ومن من أجله

قلبي غدا في الحب من أسراها

يا خير خلق الله يا من فضله

بالعد لا يحصى ولا يتناها

يا من هو الشمس المنيرة في الضحى

والشمس تكسف حينما لاقاها

لولا اقتباس الشمس من أنواره

ما كان يُعرف نورها وضياها

يا من هو البدر المنوّر للدجى

والبدر ضاء بنوره وتباها

يا أحمد المختار من رتب العلا

والمجد والإفضال في أعلاها

يـا مـن تلـوذ الأنبيـا بجنابـه
يـوم الوغـا فبلطفـه يرعاهـا
مـا أن تُعـدُّ فضـيلة أو نعمـة
في الخلـق مـن أقصـى ومـن أدناهـا
إلا وأنـت نقيبهـا وإمامهـا
ووسـيلة فيهـا إلى مولاهـا
فـاسمح بفضـلك سـيدي لمتـيم
يرجـوك في الـدنيا وفي أخراهـا
يرجـو جـوارك فيهمـا وشـفاعة
لذنوبـه والظهـر لا يقواهـا
وأنلـه قربـاً منـك إن قليبـه
يهـواك في بيـدا الهـوا قـد تاهـا
فاشـفع لـه في ذنبـه ولكـل مـن
والى فجاهـك لـيس يشـبه جاهـا
صـلى عليـك الله مـا شـهدت لـه
كـل الخلائـق أنـه أنشـاها
والآل والأصـحاب سـادات الـورى
مـن فضـلهم في النـاس لـيس يباهـا

وله أيضاً قصيدة سنية، برزت في مدح خير البرية، بدا مطلعها في البرية، عند توجه الشيخ من طيبة المسكية إلى مكة أم القرى، ومسقط رأس خير الورى، بعد تنفس الصعداء لمفارقة دار الفضل والهدى. فقال رحمه الله:

زيارة خير الخلق أسنى المطالب
وبغية ذي عشق ومنية طالب
فجرِّد إليها العزم إن كنت عاشقاً
نبي الهدى نسل الكرام الأطايب
وخل التواني واقصدَنْ لبابه
ففي بابه حتماً قضاء المآرب
ولا تسمعن قول الوشاة وأيقنن
بأن قبولاً منه ضربة لازب[1]
وإن رُمتَ أن تحظى بسؤلك مسرعاً
فحثّ إليه السير فوق الركائب

(١) جاء في لسان العرب (١٣/ ١٩٤): اللازب: الثابت، وصار الشيء ضربة لازب أي لازماً: هذه اللغة الجيدة، وقد قالوها بالميم والأول أفصح.
قال النابغة: ولا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وبـــادر إلى نيـــل المنـــى مـــن ندائـــه
فقاصـــد أهـــل الفضـــل لـــيس بخائـــب
ولا تقـــل الأســـفار ذات مشـــقة
فتلـــك إلى خـــير الـــورى طِيـــب طائـــب
يفـــرجُ عـــن زواره كـــل كُربـــة
ويـــرحم مـــنهم كـــل أضـــعف ناصـــب[1]
ويرعـــاهم في كـــل ضـــيق وشـــدّة
ويهـــديهم سُـــبل الهـــدى في الغياهـــب[2]
ويحرســـهم مـــن كـــل شـــيطان مـــارد
إذا تاهـــت الألبـــاب في كـــل لاحـــب[3]
ويمـــنحهم مـــن فضـــله الجـــمّ والـــذي
كبحـــر ولـــيس البحـــر وصـــفاً بصـــائب
إذ البحـــر والأنهـــار مـــن فـــيض جـــوده
إذا نســـبت صـــارت كقطـــرة صـــائب

---

(١) الناصب هنا المتعب، وعيش ناصب فيه كد وجهد.

(٢) الغياهب جمع غيهب: الظلمة والغيهب من الليل الشديد الظلمة قال في لسان العرب: الغيهب شدة سواد الليل والجمل ونحوه يقال: جمل غيهب مظلم السواد.

(٣) اللاحب: الطريق الواضح.

ويرضيهم فوق الذي يأملونهُ
ولا سيما مصفرّ لون وساحب(١)
ويسقيهم من كاسه الطيب الذي
هنى فارتوى من ورده كل شارب
ويعطيهم من كل ما يرتجونه
سريعاً كثيراً فوق ويل السحائب
فليس امتنان الهاشمي محمد
يكيفه أو يحصيه عدُّ حاسب
به قد هدانا الله من ظلمة الغوى
بإرساله فينا بأعلى المذاهب
وأنقذنا من هُدَّة الشرك والردا
ببعث ابن عبدالله خير الأعارب
فأولاه فضلاً منه ما قد علا به
على كل مخلوق وذا نيل واهب
هو الفرد في الأعلام طراً فإن تضف
إليه سواها لم تجد من مقارب

(١) الساحب: اسم فاعل من سحب، وهو: كناية عن الذي يجر نفسه جراً بسبب الضعف أو المرض.

هو السيد المسماح بالجود كفه
تعم ذوي القربى ويعدى الأجانب
تقدم كل الرسل في الفضل والعلا
فأخلاقه مثل الجبال الرواسب
فلا تسألن عن كل خلق مطهر
وعن كل نور للهدى منه ثاقب
فمن بعض أنوار له البدر مشرق
وشمس الضحى منه استنارت لسارب(١)
وليس له في العلم والفضل والهدى
وبذل الندى من مشبه أو مناسب
ولا مادح يأتي بما ينبغي له
بنظم ولا نثر ولا خط كاتب
فيا خير خلق الله أكرم شافع
ويا طيب الأحساب عالي المناصب
لقد نلت بالرحمن فضلاً ومنةً
على خلقه طراً بأسنى المناقب

(١) سارب: ذاهب على وجهه في الأرض ومنه قوله تعالى في سورة الرعد آية [١٠]:
﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

ويا سيد الرسل الكرام جميعهم
ومستمسكاً فيهم بأعلى المراتب
ويا غوث كل العالمين بأسرها
إذا ضاقت الأرجاء من كل جانب
ويا أحمد الهادي المشفع فيهم
إذا اشتد هول فيه ضيق المذاهب
ويا مكرم الأضياف من كل قاصد
بعيد بلاد أو قريب المضارب
ومن بابه المفتوح في كل لحظة
فمن يأته لا يخشى من رد حاجب
ويا علم الإرشاد يا منقذاً لنا
برحمة ربي من سلوك المعاطب(١)
ومن أرسل الديّان للخلق هادياً
إلى الحق عن شرك الردا والمصائب
فقام بأمر الله فيهم مجاهداً
لكل عُتُلٍّ كافر ومحارب

---

(١) المعاطب: جمع معطب، والمعاطب: المهالك، وأعطبه: أهلكه.

دليلاً إلى الإيمان بالله وحده
يذب بسيف العدل روس النواكب
إلى أن حباه الله واختار قربه
وأعطاه ما لم يُحص من فيض واهب
فلم يزل الإسلام من نور أحمد
يزيد اتضاحاً فوق شمس الكواكب
ولم يبرح الدين الحنيفي عالياً
على قصم هامات الملوك الشناخب
مقاماً بأصحاب كأن فتيُّهم
لدى الحرب في الهيجاء عضب[1] الضرائب
كرام إذا ما الضيف أمَّ رحابهم
وهم يوسرون الضيف وقت المساغب[2]
فما قيل فيهم أنهم ضيم جارهم
ولا عد منهم نقض عهد مصاحب

---

(١) العضب: القطع، عضبه يعضبه عضباً: قطعه، وتدعو العرب على الرجل: ما له عضبه الله، يدعون عليه.

(٢) جمع مسغبة، والمسغبة: الجاعة، جوع مع تعب، ومنه قوله تعالى في سورة البلد آية [٤]: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾.

فِداهم رسولَ الله بالنفس والحلى
وأسيافهم تجري دماء الأقارب
فما خشيوا في الله لومة لائم
ولا قرب ذي قربى ولا عتب عاتب
ولا أسلموه مثل إسلام قومه
ولا أدبروا عنه لخوف النوادب
إذا ما الوطيس قد حمى باشتداده
تراهم ليوثاً كالأسود الضوارب
وإن ركبوا فوق الخيول حسبتهم
كأن خلقوهم فوق تلك المراكب
وكم جاهدوا في الله حق جهاده
وكم نالهم في الله شعب شعائب
وكم في حياض الموت خاضت نفوسهم
قد استسهلوا في الله كل الكرائب
فها أنت في التنزيل تتلوا امتداحهم
ويعلون يوم العرض فوق النجائب
حباهم إله العرش منه رضاءه
وأولاهم الفردوس يوم التطالب

ولا سيما صهر النبيْ وصديقه
وصدِّيقه الأعلى وأكرم صاحب
ومن قد وقى خير الأنام بنفسه
لدى الغار عن لسع الأفاعي القواضب
ومن عز دين الله إذ جاء مسلماً
أبو حفص الفاروق نور الغياهب
كذلك عثمان الشهيد فإنه
هو الحبر ذو النورين ليث الكتائب
كذلك حب المصطفى وابن عمه
وفارسه الكرار يوم اللوازب
بنفسي أصحاباً كراماً فإنهم
حمو حرمة الإسلام عن كل شاغب
ألا يا رسول الله هذي هديتي
إلى بابك العالي فسيح المراحب
وقد برزت في باعث الشوق والهوى
ووجد أراه القلب لابد سالب
وما ظهرت إلا بفيض عطائكم
فمنكم بدا نيل الحِبَا والمكاسب

فـــإن تقبلوهـــا فهـــو مـــن بحـــر جـــودكم

وإن تـــك قـــد ردت فـــذا مـــن معـــايبي

ومـــالي لا أرجـــو قبـــولاً وأنـــت لـــي

محـــط رجـــائي مقصـــدي في مطـــالبي

عليـــك صـــلاة الله مـــا هبـــت الصـــبا

ومـــا قضـــيت بـــالله حـــاجٌ لطـــالبي

[ترجمة الأمير علي بن أحمد باشا]

هو: الأمير علي بن أحمد باشا البريكي، حاكم الأحساء، كان من العلماء الأعلام، وله ولع وحب للعلم وأهله، وهو الذي أوقف مدرسة القبة بالأحساء، وتقع في حي الكوت؛ بقرب منزله، وكان ذلك سنة (١٠١٩هـ)، وقد أوقفها على العلامة الشيخ محمد بن ملا علي الواعظ الحنفي الأحسائي - جد أسرة الملا -.

وقد وصفه الإمام المفتي إبراهيم بن حسن الملا الحنفي الأحسائي في شرح نصيحة التاج ابن زكريا بقوله:

الأجل الأفخم، ذي الخصال الحميدة، والشمائل العديدة، محب العلماء والفقراء، ومعين الضعفاء والكبراء، المثابر على السنة والجماعة، السالك من منهج الدين ما استطاعه، حضرة الباشوي الأفخمي الأكرمي علي باشا، محافظ ولاية الأحساء. اهـ.

وقد اجتمع الأمير بالشيخ تاج الدين بن زكريا عند مروره بالأحساء وأخذ عنه.

وقد ولد لهذا الأمير ثلاثة أبناء، وكلهم ولدوا في الأحساء في منزله الواقع في الكوت؛ بقرب مدرسته التي ابتناها، وأكبر أبنائه الأمير محمد، ثم الأمير أبو بكر، ثم الأمير يحيى.

وكان والدهم المذكور والياً على الأحساء، والأمير يحيى على القطيف بأمره، فأرسل والده أكبر أولاده محمداً بهدية إلى سلطان الروم؛ على جاري العادة، فزور كتاباً من والده؛ مضمونه: أنه قد كبر في السن، والتمس من السلطان أن يقيم ولده محمداً في الولاية على الأحساء مكانه بمرسوم سلطاني، فأجيب إلى ذلك. ولما وصل محمد إلى الأحساء؛ أرشى أكابر العساكر وأعلمهم بالأمر، وتلقاه والده وإخوته، فلما اجتمعوا أخرج المرسوم السلطاني وتولى بموجبه، وأراد حبس والده وإخوته، فطلبوا منه أن يجهزهم إلى الحرمين، ويعين لهم مصرفاً، فجاءوا إلى المدينة وجاوروا بها.[1]

(١) سمط النجوم العوالي.

وتوفي والدهم علي باشا بها سنة إحدى وخمسين وألف، وفي موسم الحج سنة ست وسبعين، توفي ابنه أبو بكر باشا بن علي باشا بعرفة يوم عرفة، فحمل في محفة إلى مكة، فدفن بها في المعلاة.

وقد تتلمذ الأمير أبو بكر هذا في الأحساء على علماء الأحساء، ولازم المفتي الشيخ محمد بن الشيخ ملا علي الواعظ حتى تخرج على يديه في شتى الفنون.

وقد وصفه المحبي في "خلاصة الأثر" بقوله: الأمير الكبير الجليل القدر، أحد أسخياء العالم، رأيت في بعض التعاليق ترجمته، وقد ذكر مترجمه أن ولادته بمدينة الأحساء في حدود الألف، ونشأ على الاشتغال بالعلم، ثم رحل بصحبة والده إلى المدينة المنورة وتوطنها، وكان بها ملازماً للعبادة، مواظباً على قيام الليل، حتى إنه كان يجيء إلى المسجد النبوي الشريف، فيقف ببابه نحو ساعة حتى يفتتحه الخدم، إلى أن أدركه أجله؛ يوم عرفة بعرفة، وهو

مُحْرِم، فَحُمِلَ إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وذلك سنة ست وسبعين وألف. وله ديوان شعر. اهـ.

وقد ذكر بعض شعره المحبي في ترجمته في كتابه "خلاصة الأثر".

وقال عبدالملك العصامي في كتابه "سمط النجوم العوالي" (٤/ ٥٤٩) واصفاً له بقوله: وكان ذا شهامة وصرامة، سلالة بيت عز وكرامة، ذا كرم يفوق البحر بالمد، وبأس يقصر عنه حد السنان والحد، إلى أدب بدا فيه فحول الأدباء وفاق، وممادح قيلت فيه، فنفق سوقها لديه أحسن نفاق، إلى لطف أخلاق تعبر النسيم لطافه، وتواصل قاصده وتؤمنه مأموله ومخافه، إلى قريحة وقادة، وذكاء ملك به زمام الأدب وقاده. له الشعر الرصين المبين، البطين المعنى، منه ما كتب به إلى مولانا وشيخنا العلامة أبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري ... فذكره ... إلخ.

وفي ثاني عشر رمضان سنة (١٠٩٥هـ)؛ كانت وفاة الأمير الخطير والسري الكبير، الذي حوى من الفضل أجمعه، ومن اللفظ أعذبه وأبرعه، الأمير الجليل، ذي القدر النبيل والمجد الأثيل

والأصل الأصيل، الأمير يحيى بك بن المرحوم علي باشا الأحسائي، ثم المدني الحنفي؛ بطيبة المنورة.

مولده سنة ثلاث وعشرين وألف بمدينة الأحساء، وبها نشا في حجر والده، وتأدب بأكابر علماء بلده، وأخذ عن العلامة إبراهيم[١] بن حسن الملا الأحسائي؛ الفقه والحديث وعلوم العربية، وأجازه بمروياته، وجميع مؤلفاته، وتلقى الذكر، ولبس الخرقة، وصافح من المعمرين الشيخ تاج الدين[٢] النقشبندي الهندي، عن الشيخ عبدالرحمن الشهير بحاجي رمزي.

وله شعر، منه قوله بمدح النبي ﷺ:

أتريـد جـاراً حامياً لـك سـيداً
ومقـام عـز عالياً متفـرداً
وتـرود في شـرق الـبلاد وغربهـا
متفكـراً مـتحيراً مـترددا

---

(١) هو شارح هذه النصيحة المسماة بـ: (النصيحة التاجية).

(٢) هو: صاحب النصيحة.

وتـــروم ذا والحـــال منـــك مقصـــر
عمـــا طـــرا والفعـــل لـــيس مســـددا
فعليـــك أن تـــرد النجـــاة وتتقـــي
خـــوف العقـــاب تـــلاوة والمســـجدا
فـــانزل بـــدار المصـــطفى متأدبـــاً
ولجـــوده مســـتمطراً متقصـــدا
واعـــرف لفـــيض الفضـــل منـــه مواسمـــاً
لـــتكن لهـــا مترقبـــاً مترصـــدا
فلعـــل أن تحيـــى كمـــا أحيـــا بـــه
للـــدين رسمـــاً قـــد عفـــا وتهـــددا
فاجهـــد تكـــن جـــاراً لـــه ودخيلـــه
وابـــذل لـــه روحـــاً ومـــالاً مجهـــدا
أفمـــا سمعـــت لقائـــل ذي فطنـــة
تســـمو بســـاكنها فكـــن مسترشـــدا
واطلـــب بغـــالي الـــنفس منـــك جـــواره
واتـــرك لســـوف ولا تقـــل مهـــلاً غـــدا
بـــل قـــم وســـارع للمدينـــة راغبـــاً
ولمـــن بهـــا مستشـــفعاً متعبـــدا

فهو الذي يحيي ويغني جاره
وعليه قد أوصى وحث وأكدا
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي
ولما نصحت فعلته متوددا
وجنحت مشتاقاً لطيبة قاصداً
غوث الورى بحر الحقائق أحمدا
بدر الهدى بالحق أرسل رحمة
للعالمين وبالملائك أيدا
أوليس قومي عالمين بأنني
جاورت خير المرسلين محمدا
وحللت ساحة جوده متمسكاً
بالعروة الوثقى فلا أخشى الردا
حاشاك أن أخشى وأنت وسيلتي
وذخيرتي حقًّا وأنت المقتدى
فعليك خير الخلق إني داخل
وببابك الأعلى أقمت مُقيدا
فعسى بجاهك أن يمن بعفوه
رب كريم بالنوال تفردا

ويجـــــود بـــــالغفران منـــــه تفضـــــلاً

وأنـــــال عـــــزاً مـــــن مـــــديحك ســـــرمدا

قـــــد قالهـــــا مـــــن كامـــــل في كامـــــل

يحيـــــى لكـــــي يحيـــــى ســـــعيدًا مســـــعدا

دنيـــــا وأخـــــرى إذ لجـــــا لجنـــــابكم

أيخيـــــب مـــــن أم الجنـــــاب المفـــــردا

حاشـــــا وحاشـــــا ثـــــم حاشـــــا أن يـــــرى

متألمـــــاً مـــــن جـــــاءكم متعمـــــدا

وصـــــلاة ربـــــي دائمـــــاً وســـــلامه

تغشـــــى ربـــــوع المصـــــطفى والمرقـــــدا

والآل والصـــــحب الكـــــرام جمـــــيعهم

والتـــــابعين لهـــــم ومـــــن قـــــد وحـــــدا

مـــــا لاح نجـــــم في الســـــماء ومـــــا أضـــــا

نجـــــم ومـــــا أشـــــجى هـــــزار غـــــردا

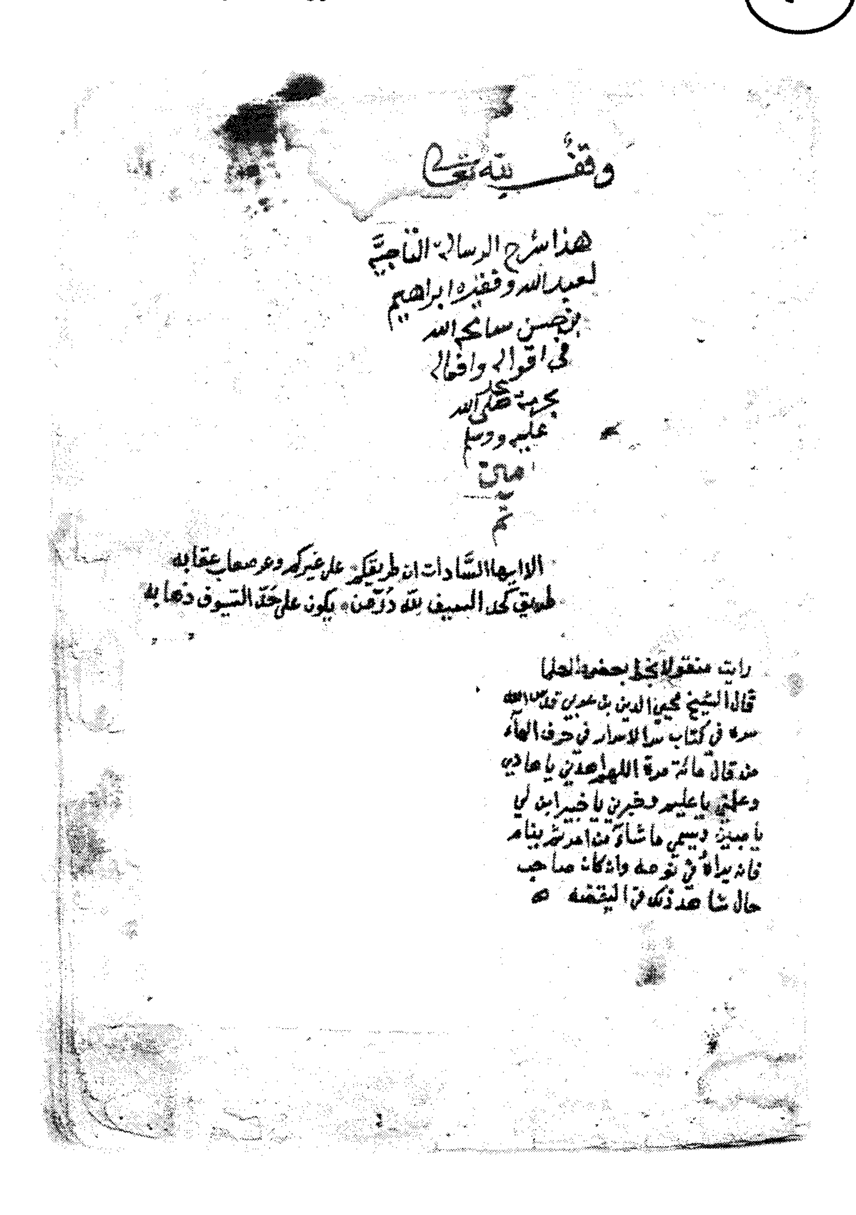
- وقوله مضمناً:

ظلمـــت نفســـي ولم أعمـــل بموجبهـــا
ومـــا علمـــت بـــأن الغـــي يـــتلفني
يـــأتي علـــى المـــرء في أيـــام محنتـــه
حتـــى يـــرى حســـنًا مـــا لـــيس بالحســـن

(سمط النجوم العوالي)

صور المخطوط

المستعان به



وقف لله تعالى

هذا شرح الرسالة الناجية
لعبد الله وفقيره ابراهيم
بن حسن سامحه الله
في اقوال وافعال
نبيه محمد صلى الله
عليه وسلم
امين

تم

الا ايها السادات ان طريقكم على غيركم وعر صعاب عقابه
طريق كحد السيف لله دركم يكون على حد السيوف ذهابه

رايت منقولا بخط بعض العلما
قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله
سره في كتاب سر الاسرار في حرف الهاء
من قال مائة مرة اللهم اهدني يا هادي
وعلمني يا عليم وخبرني يا خبير ابن لي
يا مبين ديمي ما شاء من امر من يشا بنام
فانه يراه في نومه واذا كان صاحب
حال شاهد ذلك في اليقظة

هذه صورة غلاف الكتاب للنسخة الأولى ويظهر فيها عنوان الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلوة والسلام على نبيه وعبده محمد وآله و
صحبه من بعده وبعد فقد ورد كتاب من سيدنا وشيخنا الشيخ
الامام الكامل المكمل قطب العارفين وعمدة المحققين وبقية
المرشدين مولانا الشيخ المرشد في علوم الطريقة الهادي الى منهاج
الحقيقة الشيخ تاج الدين بن زكريا العثماني الصوفي النقشبندي
فسح الله في مدته وجعلنا من صفوته واعاد علينا من نفحات
عوارفه وفتوحات معارفه بمنه وذلك في اواخر جمادي
الاخرة من عام تسع وثلثين بعد الالف من الهجرة ارسله
الى مريده ومحبه الرجل الاكرم الاجل الافخم ذي الخصال الحميده
والشمايل العديده محب العلما والفقرا ومعين الضعفاء
والكبراء المثابر على السنة والجامع السالك من منهج الدين
ما استطاعه حضرة الباشوي الافخم الاكرم علي باشه [illegible]
ولاية الاحسا الآن في غرة شيعه قبحها ويسر الله له من خير
الدارين ما شاء ومن علينا وعليه بحسن السيرة وصفاء السريرة
والاستقامة الدايمة والوفاة على الاسلام والثبات على
ملة محمد عليه افضل الصلوة والسلام اللهم امين يا رب العالمين و
كان الكتاب المذكور مشتملا على مواعظ ونصايح من الشيخ
المشكور لمريده المذكور تتضمن ذكر شي من كلمات الصوفية
ونبذا يسيرا من اصطلاحات الزمرة المرضية فرغب الي
العبد الاقل لبيا الفهم قليل العلم ابراهيم بن حسن سامحه
الله بفضله ووالديه ومشايخه وجميع المسلمين ان [illegible]
ذلك

هذه صورة الصفحة الأولى من النسخة الأولى

فانه لم يصحب عليها ما هو حق في الشرع بل كان كثير من الاكابر
مع عظيم اجتهادهم وفنا نفوسهم وصحة اخلاصهم يخافون
من الريا في اعمالهم ويحذرون منه اشد الحذر حتى روي عن الفضيل
بن عياض انه كان يقول من اراد ان ينظر الى مرائي فلينظر الي وسمع
وسمع مالك بن دينار امراة وهي تقول يا مرائي فقال لها يا هذه وجدت
اسمي الذي اضله اهل البصرة وقال يوسف بن الحسين الرازي اعز
شي في الدنيا الاخلاص وكم اجتهد في اسقاط الريا عن قلبي فكانه
ينبت فيه على لون اخر فاذا كان هولاء الاكابر مع صحة احوالهم
وشهادة افعالهم لاقوالهم يخافون على انفسهم من الريا ويعدون
انفسهم من المرائين فكيف امثالنا من لم يعمل صلاة حضر فيها
مع مولاه ولم يعمل عملا صح فيه المعاملة مع الله فلا حول ولا قوة
الا بالله العلي العظيم نسأله سبحانه ان يسامحنا بكل تقصير وان
يغفر لنا ما اجترحناه من صغير وكبير وان يمن علينا بالعفو والعافية
والسلامة من كل بلية في الدنيا والاخرة بمنه وكرمه انه على ذلك
قدير وكيف يامن العاقل خدع النفس وغرورها وافات اعمالها
وقد قال الصديق الاكبر وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم الشرك في امتي اخفى من دبيب
النمل فالواجب على السالك ان يبذل جهده في الاتيان بما امر به وتحقق
مع ذلك انه لم يوف من حق الله عليه ذرة وان لم يات بحقيقة ما طلب منه
فقد قال تعالى وما قدروا الله حق قدره وقال عليه الصلاة والسلام
سبحانك لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك جعلنا الله سبحانه
بجاه نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ممن صدقت افعاله واقواله
ولا جعل حظنا من مثل هذا الكلام مجرد لقلقة اللسان انه الكريم المنان
وبه نستغيث ونستعيذ من شرور انفسنا [illegible] وسيئات اعمالنا وهو المستعان
وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة
وقنا عذاب النار [illegible] ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار وصلى الله على سيدنا محمد النبي
الامي وعلى اله الطاهرين وصحابته الاكرمين وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين [illegible]
[illegible] الراحمين والحمد لله رب العالمين تم وكمل الشرح بعون الله وتوفيقه [illegible] وسلم تسليما

هذه صورة الصفحة الأخيرة من الكتاب للنسخة الأولى ويظهر فيها

الأسطر الأخيرة مختلفة عن بقية أسطر الكتاب

هذه صورة الصفحة الأولى من الكتاب للنسخة الثانية ويظهر فيها عنوان الكتاب أيضاً

اه وسمع مالك بن دينار امراة وهي تقول يا مرائي فقال لها يا هذه وجدت اسمي الذي اضله
اهل البصرة وقال يوسف بن الحسين الرازي اعز شيء في الدنيا الاخلاص وكم اجتهد
في اسقاط الرياء عن قلبي فكانه ينبت فيه على لون اخر فاذا كان هؤلاء الاكابر مع صحة
احوالهم وشهادة افعالهم لا اقوالهم يخافون على انفسهم من الرياء ويعدون انفسهم
من المرائين فكيف امثالنا ممن لم يصل صلاة بحضور قلب مع مولاه ولم يعمل عملا
صحيحا فيه المعاملة مع الله فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم نسال الله سبحانه ان
يسامحنا بكل تقصير وان يغفر لنا ما اجترحناه من صغير وكبير وان يمن علينا بالعفو
والعافية والسلامة من كل بلية في الدنيا والاخرة بمنه وكرمه انه على ذلك قدير وكيف
يامن العاقل خدع النفس وغرورها وآفات اعمالها وقد قال الصديق الاكبر وما
ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم الشرك
في امتي اخفى من دبيب النمل فالواجب على السالك ان يبذل جهده في الاتيان
بما امر به ويعتقد مع ذلك انه لم يوف من حق الله عليه ذرة وانه لم يات بحقيقة ما
طلب منه فقد قال تعالى وما قدروا الله حق قدره وقال عليه الصلاة والسلام
سبحانك لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك جعلنا الله سبحانه بجاه
نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ممن صدقت افعاله اقواله ولا جعل حظنا من
مثل هذا الكلام مجرد لقلقة اللسان انه الكريم المنان وبه نستغيث ونستعيذ
من شرور انفسنا وسيئات اعمالنا وهو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا
قوة الا بالله العلي العظيم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب
النار فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار وصلى الله على سيدنا محمد
النبي الامين وعلى آله الطاهرين وصحابته الاكرمين وعلى التابعين لهم باحسان الى
يوم الدين وعلينا معهم برحمته انه ارحم الراحمين والحمد لله رب العالمين ٥

لبعضهم

الا ايها السادات ان طريقكم ... على غيركم وعر صعاب عقابه
طريق كحد السيف ثم دقيقة ... يكون على حد السيوف ذهابه

[illegible]

هذه صورة الصفحة الأخيرة من الكتاب للنسخة الثانية

شرح

نصيحة تاج الدين ابن زكريا

لبعضهم:

ألا أيها السادات إنّ طريقكم | على غيركم وعزّ صعاب عقابه
طريق كحد السيف لله در من | يكون على حد السيوف ذهابه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على نبيه وعبده، محمد وآله وصحبه من بعده.

وبعد: فقد ورد كتابٌ من سيدنا وشيخنا الإمام الكامل المكين، قطب العارفين، وعمدة المحققين، وبقية المرشدين، مولانا الشيخ المرشد في علوم الطريقة، الهادي إلى مناهج الحقيقة، الشيخ تاج الدين بن زكريا العثماني الصوفي النقشبندي، فسح الله في مدته، وجعله من صفوته، وأعاد علينا من نفحات عوارفه، وفتوحات معارفه، آمين.

وذلك في أواخر جمادى الآخرة، من عام تسعة وثلاثين بعد الألف من الهجرة، أرسله إلى مريده ومحبه، الرجل الأكرم، الأجل الأفخم، ذي الخصال الحميدة، والشمائل العديدة، محب العلماء والفقراء، ومعين الضعفاء والكبراء، المثابر على السنة والجماعة، السالك من منهج الدين ما استطاعه، حضرة الباشوي الأفخمي الأكرمي علي باشا؛ محافظ ولاية الأحساء، لا زال في عزة منيعة

قعساء[١]، ويسر الله له من خير الدارين ما شاء، ومنَّ علينا وعليه بحُسنِ السِّيرة، وصفاء السَّرِيرَة، والاستقامةِ الدائمةِ، والوفاةِ على الإسلام، والثباتِ على ملة محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، اللهم آمين، يا رب العالمين.

وكان الكتاب المذكور، مشتملاً على مواعظَ ونصائحَ من الشيخ المشكورِ، لمريده المذكورِ، يتضمنُ ذكرَ شيءٍ من كلمات الصوفية، ونبذةً يسيرةً من اصطلاحاتِ الزمرةِ المرضية، فَرَغِبَ إلى العبد الأقل، بليدِ الفهمِ قليلِ العلمِ، إبراهيمَ بن حسن؛ سامحه الله بفضله، ووالديه ومشايخه، وجميع المسلمين، أنْ يُوَضِّحَ معاني ذلك في كراسة لطيفة، لِيَتَأَمَّلَها حيناً بعد حين، ويَتَفَهَّمَ في معانيها عن يقين، فاعتذرت بأني بعيد عن هذا الشان، وأني لست من أهل الميدان، فقد قيل:

لا يعرف الشّوقَ إلا من يكابده ... ولا الصبابةَ إلا من يعانيها

فكيف يمكن أن يشرح أحوالهم ومقاماتهم؛ من لم يسلك سلوكهم؟ ولم يتحقق بمُنَازَلاتهم؟ كلا والله، أين الثرى من الثريا؟ وأين الماء القراح من الحميا؟

---

(١) أي: ممتنعة ثابتة. (لسان العرب) (ق ع س).

ثُمَّ لَمَّا لم يكن بدأ من إجابته في طُلْبَتِهِ، وإسعافه ببغيته، استعنت بمن له الخَلْقُ والأمر، ونويت في ذلك طاعة ولي الأمر، وأوضحتها بما أخذته من كلام القوم في كتبهم ورسائلهم، وما استفدته من سيدي الشيخ صاحب المكاتبة مشافهة، في وقت قراءتي عليه في بعض كُتُبِ الصوفية، من معاني اصطلاحاتهم ومسائلهم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. فأقول مستعيناً بمن له القوة والحول:

قال مولانا الشيخ بعد البسملة، والحمدلة، والصلاة على النبي الأكرم ﷺ:

(ثم أوصيكم بتقوى الله)

اعلم أن التقوى وصية الله في الأولين والآخرين، فقد قال جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾(١)، وقال النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٢)؛ وذلك لأنها

---

(١) سورة النساء: آية [١٣١].

(٢) رواه الترمذي (١٩٧٨) وقال حديث حسن صحيح، والدارمي (٢/ ٢٣١) رقم (٢٧٩٤) ورواه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨) والبيهقي والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

رأس الدين، وجماع الخير في الدارين، وبها المخرج من مضايق الأمور، والنجاة من كل محذور، وحسبك مما ورد فيها من الآيات القرآنية؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، وقوله في وصف الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾[٥]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ومن الأحاديث النبوية؛ قوله ﷺ: «ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى»[٦]، وقوله: «لا فضل لعربي على

(١) سورة الحجرات: آية [١٣].

(٢) سورة المائدة: آية [٢٧].

(٣) سورة آل عمران: آية [١٣٣].

(٤) سورة الطلاق: آية [٢-٣].

(٥) سورة الأنفال : آية [٢٩].

(٦) رواه أحمد (٤/ ١٤٥، ١٥٨) والبيهقي في الشعب رقم (٦٦٧٧) من حديث عقبة بن عامر وهو حديث حسن بشواهده.

أعجمي إلا بالتقوى، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[١].

وقوله لأبي ذر رضي الله عنه: «أوصيك بتقوى الله؛ فإنها رأس الأمر كله»[٢]، ولأبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «عليك بتقوى الله؛ فإنها جماع كل خير»[٣]، وعن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، قال: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء»[٤].

وقال بعض المشايخ: من كانت التقوى رأس ماله؛ كلَّت الألسن عن وصف ربحه.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب رقم (٥١٣٧) ورواه أحمد في باقي مسند الأنصار رقم (٢٢٣٩١).

(٢) جزء من حديث طويل رواه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١) والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: السعدي ليس بثقة.

(٣) هو بعض حديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠١) وقال: رواه الطبراني في الصغير وفيه ليث بن سليم وهو مدلس وقد وثق هو وبقية رجاله.

(٤) حديث مقطوع رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (١٠٨٩٧) عن علي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

وكيف لا يكون ذلكَ؟ ونتيجتها علم الهداية، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[(١)]، وقال ﷺ: «من عمل بما علم وَرَّثَهُ الله علم ما لم يعلم»[(٢)].

وحقيقة التقوى: التوقي بطاعة الله تعالى عن عقوبته، يُقَال: اتَّقى فلان بترسه. فالتقوى: اجتناب كل ما يضر في الدين، والمتقي: هو الذي يقي نفسه عن كل ما يضره في دينه.

وإنما أتى الشيخ بضمير الجمع؛ لتشمل الوصية المخاطب المقصود وغيره.

ثم قال الشيخ: (**والمتقي: مَنْ يَتَّقِي الشِّرْكَ والمَعَاصِيَ**).

أقول: قد ذكر العلماء نفع الله بهم: أن التقوى على ثلاث مراتب.

أوله: تقوى الشرك الجلي، وهي تقي صاحبها عن العذاب المخلّد.

وثانيها: تقوى المعاصي والسيئات؛ بأن يتحرز عن كل ما يُؤَثِّمُ من فعل أو ترك، حتى الصغائر عند بعضهم، وهذه هي

---

(١) سورة البقرة: آية [٢٨٢].

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء رقم (١٤٨٦٣) من حديث أنس مرفوعاً وضعفه.

المرتبة الوسطى، وهي المتعارفة باسم التقوى في لسان الشرع، ومعناها: امتثال الأوامر واجتناب المناهي، والعبد مأمور بها في سره وعلانيته، وإن وقع منه أحياناً تفريط بترك بعض المأمورات، أو فعل بعض المنهيات ثم تلافاه بالتوبة أو المكفرات: فلا يخرج بذلك عن اسم المتقي إن شاء الله تعالى.

وثالثها: تقوى السر، وهي: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق، وعن الالتفات إلى غيره تعالى في العطاء والمنع، والضر والنفع.

وهذه المرتبة مستلزمة لما قبلها؛ لأن فيها التنزه عن الشرك الجلي والخفي، والتباعد عن جميع المعاصي الظاهرة والباطنة، وهي المأمور بها في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: آية [١٠٢] انظر تفسير البيضاوي في تفسير قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، قال السيد عبدالله بن علوي الحداد في نصائحه ص (١٢) بعد هذه الآية: ولن يستطيع العبد ولو كان له ألفَ ألفِ نفسٍ إلى نفسه، وألفَ ألفِ عمرٍ إلى عمره؛ أن يتقي الله حق تقاته، ولو أنفق جميع ذلك في طاعة الله ومحابه، وذلك لعظم حق الله تعالى على عبده، ولجلال عظمة الله وعلو كبريائه وارتفاع مجده. وقد قال أفضل القائمين بحق الله وأكملهم محمد ﷺ في دعائه: اعترافاً بالعجز عن القيام بإحصاء الثناء على الله: «أعوذ =

وروي عن ابن مسعود في تفسيرها: «هي أن يطاع فلا يعصى، ويُشْكَرُ فلا يكفر، ويذكر فلا يُنْسَى»[١]، وقيل: «أن يُنَزِّه الطاعة عن الالتفات إليها، وعن توقع المجازات عليها».

وقيل: «أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه، أو ابنه، أو أبيه».

وقال بعضهم: «لا يتقي الله عبدٌ حقَّ تقاته؛ حتى يخزن لسانه»[٢].

= برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقد قال بعض العلماء: إن قوله تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾.

وقال بعضهم: الآية الثانية مبينة للمراد من الآية الأولى: لا ناسخة لها، وهذا هو الصواب إن شاء الله تعالى. فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٧) وإسناده صحيح موقوف، ورواه الحاكم في المستدرك مرفوعاً ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كذا قال. والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

(٢) روي ذلك عن أنس ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية.

وقال سهل ابن عبدالله[١]: «من أراد أن يصح له التقوى؛ فليترك الذنوب كلها».

وقال النصر أباذي[٢]: «التقوى: أنْ يَتَّقِيَ العبدُ ما سواه تعالى».

وحاصلها[٣] هو المتقي الحقيقي، ومن تحقق بهذا المقام؛ انقطع بقلبه إلى مولاه؛ والتجأ إليه في سَرَّاه وضَرَّاه.

---

(١) هو أبو محمد سهل بن عبدالله بن يونس، التستري، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٣ هـ (الأعلام للزركلي ٣/ ٢١٠) قال القشيري في رسالته (ص ٤٠٠) أحد أئمة القوم، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع، وكان صاحب كرامات. وقال: كل فعل يفعله العبد، بغير اقتداء، فهو عذاب على النفس. وانظر عبارته هذه في الرسالة القشيرية (ص ١٠٥).

(٢) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر أباذي المتوفى سنة ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م شيخ خراسان في وقته، صحب الشبلي وأبا علي الروذباري والمرتعش، وجاور بمكة المكرمة وكان عالماً بالحديث كثير الرواية. وقال: (إذا بدا لك شيء من بوادي الحق، فلا تلتفت معها إلى جنة أو نار، فإذا رجعت عن تلك الحال؛ فعظم ما عظمه الله تعالى). وقال: (أصل التصوف: ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق -أي: قبولها-، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات). (الرسالة القشيرية ص ٤٣٧-٤٣٨) وانظر عبارته هذه في الرسالة القشيرية (ص ١٠٥).

(٣) في نسخة (ب) وصاحبها.

وكأنَّ مراد الشيخ بيان المتقي بهذه المرتبة، لأن محط نظر السادة الصوفية؛ المقامات العالية، فمراده بالشرك؛ الشرك الخفي، ومنه: الالتفات إلى غير الله، والاستعانة بغيره تعالى، ومراده بالمعاصي: ما يشمل رؤية النفس وملاحظاتها، وملاحظة أعمالها وأحوالها، وكل ذلك مناف لحقيقة التقوى عندهم.

ولذا قال الشيخ: (**والذي الْتَفَتَ**) أي: وكل من التفت إلى غير الله، في ضر أو نفع، أو عطاء أو منع، أي: شهد ذلك حاصلاً منه حقيقة أو مجازاً، (**أو استعان من غير الله**) أي: طلب المعونة من غيره في شيء من ذلك (**فهو مشرك**) أي: عند أهل الحقيقة، وهم السادة الصوفية؛ العارفون بالله تعالى، الجامعون بين علم الشريعة والحقيقة، الثابتون على الطريقة، فلا يسمى عندهم من هو بهذه المثابة متقياً؛ بل يسمى مشركاً.

وإنما كان مشركاً عندهم: لإثباته في الكون فاعلاً غير الله، حتى استند إليه في أمر من الأمور، وذلك مناف للتوحيد؛ بل لأدنى مراتبه؛ وذلك لأنه لم يتحقق بتوحيد الأفعال، الذي هو أول مراتب التوحيد عندهم.

قالوا: ثم يترقى منه السالك إلى توحيد الصفات[١]، ثم منه إلى توحيد الذات، ولا يتحقق بالمرتبة الثالثة من التقوى، إلا مَنْ فني عن نفسه، وعما سوى الله تعالى، وكذا لا يتخلص من بقايا شيء من الشرك ما دام لم يصل إلى هذا المقام.

قال الشيخ رسلان[٢]: «كلك شركٌ خفي، وما يبين لك توحيدُك، إلا إذا خرجتَ عَنْكَ، وكلما كشف لك بان لك أنه هو لا أنت؛ فتستغفرُ منك»[٣].

ولذا قال الشيخ: (**والعلم بنفسه**) أي: علم السالك بنفسه، أي: استشعاره للنفس، وملاحظته لها، وكذا مطالعة شيء من أحوالها (**معصية**) عندهم، فلا يكون العالم بنفسه بذلك الاعتبار متقياً؛ لتلبسه ببعض المعاصي، إن لم يكن راضياً عن نفسه، وبأُمَّهات المعاصي وأصولها؛ إن كان راضياً عنها.

---

(١) أن تشهد صفات الله في أفعالك.

(٢) هو الشيخ رسلان الدمشقي، من أكابر مشايخ الشام؛ المجمع على جلالته. له أحوال معروفة، ومكاشفات مشهورة. ومن كلامه: (الحدّة مأوى كل شر، والغضب يحوج إلى ذل الاعتذار). وقال: (سبب الغضب: هجوم ما تكرهه النفس عليها ممن فوقها؛ فتحدث السطوة والانتقام). مات بدمشق، ودفن فيها قبل السبع مائة. (الكواكب الدرية ٣/ ٨٥).

(٣) انظر: رسالة الشيخ رسلان، وشرحها للشيخ عبدالغني النابلسي (ص٣٤).

كما قال سيدي الشيخ ابن عطاء الله[١]: «أصل كل معصية وشهوة وغفلة؛ الرضا عن النفس»[٢].

ومن ثم قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي[٣] - نفعنا الله ببركاته -: «من مات ولم يتوغل في علمنا هذا؛ مات وهو مصر على الكبائر».

وقد تسامح سيدي الشيخ هنا في عدّه العلم بالنفس كالرضى عنها معصية، تقريباً إلى فهم المخاطَبِ، وإلا فَهُمْ يعدون ذلك شركاً؛ لأنه منافٍ لحقيقة التوحيد؛ الذي لا يتحقق إلا بعد الفناء عما سوى الله تعالى.

---

(١) هو تاج الدين بن محمد بن عبدالكريم بن عطاء الله السكندري (أبو العباس المرسي) صاحب الشاذلي، وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه. قال الذهبي: (كانت له جلالة عظيمة، ووقع في النفوس، ومشاركة في الفضائل، وكان يتكلم -بالجامع الأزهر فوق كرسي- بكلام يُرَوِّحُ النفوس). فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير (شذرات الذهب ٦/ ٢٠).

(٢) الحكمة رقم (٣٥) من الحكم العطائية.

(٣) هو: علي بن عبدالله بن عبدالجبار الشاذلي المغربي، (أبو الحسن) رأس الطائفة الشاذلية، وصاحب الأوراد والأحزاب المشهورة، ولد في (غمازة) من قرى أفريقية، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن شاذلة؛ فنسب إليها، وكان ضريراً، وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج، ولد سنة ٥٩١ هـ، وتوفي سنة ٦٥٦ هـ (الأعلام ٥/ ٢٢٠).

ومن هنا قال بعض المشايخ: «قليل العمل مع شهود[1] المنة؛ خير من كثير العمل مع شهود التقصير من النفس» وعللوا ذلك: بأن شهود التقصير لا يخلوا عن الشرك في التقدير، فافهم.

وكذا قال سيدي الشيخ في كتابه المسمى بـ"جامع الفؤاد" المتقي: «من يتقي الشرك والمعاصي والشبهات؛ فرؤية نفسه شرك، ورؤية الأعمال معصية، ورؤية الخلق شبهة».

وقال الإمام القشيري[2] في [باب التقوى] من الرسالة: «أصل التقوى؛ اتقاء الشرك، ثم بعده اتقاء[3] المعاصي والسيئات،

---

(١) يعني أن تستحضر منة الله عليك في أداء هذا العمل.

(٢) هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري النيسابوري، ولد في شهر ربيع الأول سنة ٣٧٦هـ ببلدة (استوا)، وتوفي في (نيسابور) في ربيع الآخر ٤٦٥هـ، ودفن إلى جانب أستاذه الشيخ أبي علي الدقاق رحمه الله، ولم يدخل أحد من أهله غرفة كتبه إلا بعد سنين؛ احتراماً له.
كان الشيخ عالماً في كثير من العلوم، وصوفياً كبيراً، وله مؤلفات كثيرة في التصوف وعلوم الإسلام الأخرى. ومن أشهر مؤلفاته: كتاب الرسالة القشيرية في علم التصوف؛ ألفها سنة ٤٣٨ هـ. انظر ترجمته في تاريخ الخطيب البغدادي (٢/ ٨٣).

(٣) أي: رؤية الأعمال.

ثم بعده اتقاء الشبهات[١]، ثم يَدَعْ بعده الفضلات، ولكل قسم من ذلك باب»[٢]. انتهى.

وما دام السالك لم يصل إلى مقام الفناء؛ فهو عالم[٣] بنفسه، مستشعر لها، لا يتخلص من رؤية أعمالها، واستحسان أحوالها، وذلك كله معصية عندهم.

ثم استدل عليه الشيخ ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب للسالك بقوله: (**لأن**)، أي: الشأن (**وجودك**)، أي: رؤية وجودك (**ذنب**)، أي: عظيم، (**لا يقاس به ذنب**) عند أهل الطريقة؛ لعظمه عندهم. وهذا آخر بيت مشهور في كتب القوم أوله:

وإن قُلْتُ مَا أَذْنَبْتُ قَالَتْ مُجِيبَةً وَجُوْدُكَ ذَنْبٌ لا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ

ومراد الشيخ من ذكر هذا الاستشهاد به؛ على أنه لا تصح التقوى إلا بنفي الوجود، كما قال ذلك في كتابه "جامع الفؤاد"،

---

(١) أي: رؤية الخلق.

(٢) الرسالة القشيرية (ص ١٠٥).

(٣) أي: يحس بها ويشعر بها.

وعقَّبه بما نقل عن أبي عبد الله الروذباري[١]: «أن التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله»، ثم قال: «فيُبْعِدكَ وجودُك؛ إن لم تكن أنت لا يصدر منك شيء..» انتهى.

وذلك لأنه مناف لحقيقة التوحيد؛ الذي ينعدم به ما سوى الله من قلب السالك، حتى لا يرى في ذلك المقام نفسه؛ لأنه قد فني عنها، ولا غيره كما كان في الأزل.

ثم قال الشيخ: (**فينبغي للطالب الصادق**)، أي: طالب المولى سبحانه، الصادق في طلبه، (**أن يفنى عن نفسه**)؛ بأن يجتهد فيما يصل به إلى ذلك المقام العالي، وذلك بأن يسلك على يدِ شيخٍ مرشدٍ كاملٍ في نفسه، مُكَمِّلٍ لغيره، بصير بالطريق، عارفٍ بعيوب النفس وأخلاقها، ومداخل آفاتها، وعلاجاتها، وَيُسَلِّمُ نفسَه إليه، ويكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل؛ حتى يربيه، ويهذب أخلاقه، ويطهر نفسه من رعوناتها، وإشراكها، ووساوسها، وظلماتها.

---

(١) هو أبو عبدالله، أحمد بن عطاء الروذباري توفي سنة (٣٦٩ هـ) شيخ الشام في وقته، ومات في صور. وقال: (أقبح من كل قبيح؛ صوفي شحيح). (الرسالة القشيرية ص٤١٥) وعبارته المذكورة في الرسالة (ص ١٠٧).

واعلم أن الفناء الذي أشار إليه الشيخ، وكذا البقاء المقابل له في عرف القوم؛ مقامان من مقاماتهم -نفع الله بهم-، لا يعرفهما حقيقةً إلا من وصل إليهما، وذاقهما، وتحقق بهما، ولسنا بتلك المثابة، ولا قاربناها، ولا شممنا منها رائحةً[١]، غير أننا نذكر بحسب التطفل على فضلهم، والأخذ من كلامهم، شيئاً مما ذكروه في ذلك، وعبروا به عنهما؛ لحاجتنا إلى الذكر، وننقل في ذلك صورة كلامهم، ونستغفر الله من الزلل، والتجرء على ذكر ما لسنا له بأهل، ولنقتصر على نقل كلام الإمام، العارف، المحقق، شيخ الشيوخ، شهاب الدين السهروردي[٢]؛ لأن في كلامه شِفاءَ

---

(١) هذا من عظيم تواضعه، وجليل معرفته. وهذا أدب السالكين، فإنهم لا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقاماً. وإلا فالشيخ رحمه الله من كُمَّلِ العارفين؛ كما وصفه بذلك تلميذه ومريده الأمير يحيى بن علي باشا رحمهم الله جميعاً.

(٢) هو شهاب الدين أبو حفص عمرو بن محمد بن عبدالله القرشي التيمي البكري السهروردي البغدادي. والسُّهروردي نسبة إلى سهرورد؛ قرية من زنجان بالجبال، وزنجان بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قرية من أبهر وقزين، ولد في آخر رجب سنة (٥٣٩هـ) وقدم بغداد وهو شاب، فصحب عمه أبا النجيب السهروردي، وأخذ عنه الفقه والوعظ والتصوف، وصحب الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وسلك طريق الرياضات والمجاهدات، وقرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع الحديث الشريف، ثم لازم الخلوة والذكر والصوم إلى أن خطر له عند علو سنه أن يظهر للناس ويتكلم، فعقد مجلس الوعظ في مدرسة عمه، وظهر له القبول، ونفع الله به خلقاً كثيراً. (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧٣-٣٩٧).

العليل، فقال في "العوارف": «اعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرةٌ:

فبعضها إشارةٌ إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات، وهذا تقتضيه التوبة النصوح، فهو ثابت بوصف التوبة.

وبعضها إشارةٌ إلى زوال الرغبة والحرص والأمل، وهذا يقتضيه الزهد.

وبعضها إشارةٌ إلى فناءِ الأوصاف المذمومة، وبقاء الأوصاف المحمودة، وهذا تقتضيه تزكية النفس.

وبعضها إشارةٌ إلى حقيقة الفناء المطلق.

وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه، ولكن الفناء المطلق: هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه وتعالى على كونِ العبد، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن:

فأما الفناء الظاهر فهو: أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً إلا بالحق، ثم يأخذه في المعاملة مع الله تعالى بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء؛ كان يبقى أياماً لا يتناول الطعام ولا الشراب؛ حتى يتجرد له فعل

الله تعالى فيه، ويقيض الله تعالى له من يطعمه ويسقيه؛ كيف شاء وأحب. وهذا لعمري فناء؛ لأنه فني عن نفسه وعن الغير، نظراً إلى فعل الله تعالى(١).

والفناء الباطن: أن يكاشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولي على باطنه أمر الحق؛ حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس.

وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه، وقد تتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق.

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبدٍ البصري، وقلت له: هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس؛ من الشرك الخفي؟

وكان عندي أن ذلك من الشرك الخفي، فقال لي: هذا يكون في مقام الفناء.

ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفي أم لا.

---

(١) أي: لفناء فعل غير الله.

ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار؛ أنه كان في الصلاة، فوقعت اسطوانة في الجامع؛ انزعج لهدتها أهل السوق، فدخلوا المسجد، فرأوه في الصلاة ولم يحس بالاسطوانة في الجامع ووقوعها، فهذا هو الاستغراق والفناء باطناً.

وقد يتسع وعاؤه؛ حتى لعله يكون متحققاً بالفناءِ ومعناه؛ روحاً وقلباً، ولا يغيب عن كل ما يجري من قولٍ وفعلٍ.

ويكون من أقسام الفناء؛ أن يكون في كل فعلٍ وقولٍ مرجعه إلى الله، وينتظر الإذن في كليات أموره؛ ليكون في الأشياء بالله لا بنفسه، فتارك الاختيار منتظراً لفعل الحق؛ فانٍ، وصاحب الانتظار لإذن الحق في كليات أموره راجعاً إلى الله بباطنه في جزئياتها، فانٍ، ومن ملَّكه الله تعالى اختياره، فأطلقه في التصرف، يختار كيف شاء وأراد، لا منتظراً للفعل، ولا منتظراً للإذن؛ هو باقٍ. والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق، والفاني محجوب بالحق عن الخلق.

والفناء الظاهر، هو لأرباب القلوب والأحوال، والفناء الباطن؛ لمن أطلق عن وثاق الأحوال، وصار بالله لا بالأحوال،

وخرج من القلب؛ فصار مع مقلبه لا مع قلبه..»[١] انتهى كلام السهروردي في "العوارف".

وقال الشيخ في "جامع الفؤاد": «وعند الطائفة الصوفية ﷺ: الفناء: عبارة عن نهاية السير إلى الله تعالى.

والبقاء: عن بداية السير في الله؛ لأن السير إلى الله ينتهي إذا قطعت بادية الوجود بقدم الصدق.

والسير في الله؛ يتحقق بعد الفناء المطلق، فيعطيه الله تعالى الوجود الموهوب، وذاتاً مطهرة من أَلْوَاثِ الحدثان، فبها يتصف بأوصاف الله تعالى، ويتخلق بأخلاق الله تعالى، ولا ينتهي هذا السلوك؛ لأن صفات الله تعالى غير متناهية...» انتهى. والله الهادي إلى سواء السبيل.

وفي "تعريب الرشحات" لسيدي الشيخ عن بعض مشايخها؛ «الدليل على صحة حال الفناء، وفناء الفناء: أن يجد السالك في نفسه اتباع الرسول ﷺ، ولا يكون فيه ثقل العمل؛ بل يكون راغباً إلى أعمال الشرع بالذوق والسرور».

---

(١) عوارف المعارف (٨٨٨-٨٩٠).

ثم قال الشيخ: (**فإذا فنى النفس**) أي: فإذا تم سلوك السالك بوصوله إلى مقام الفناء، بحيث يكون فانياً عن نفسه وعن الخلق، فحينئذ (**يتحقق بمقام البقاء**) ويتحقق بفهم قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[١]، أي: ذات ربك؛ لأنه الباقي سبحانه، وما سواه فانٍ.

وقال البيضاوي[٢] في تفسير هذه الآية: «ذاته ولو استقربت جهات الموجودات، وتصفحت وجوهها؛ وجدتها بأسرها فانيةً في حد ذاتها إلا وجه الله، أي: الوجه الذي يلي جهته ..»[٣] انتهى. فافهم.

(**ذو الجلال والإكرام**)، أي: الاستغناء المطلق، والفضل العام.

---

(١) سورة الرحمن: آية [٢٧].

(٢) هو عبدالله بن عمر بن محمد (ناصر الدين) البيضاوي فقيه. أصولي، متكلم. قال عنه ابن السبكي: (كان إماماً، مبرزاً نظاراً صالحاً متعبداً زاهداً)، توفي سنة ٦٩١هـ. من مؤلفاته: تفسيره المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والمطالع في أصول الدين، والمنهاج في أصول الفقه (طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٥٧، وهدية العارفين ١/ ٤٦٢).

(٣) تفسير البيضاوي (٥/ ١٧٢).

وفسر بعضهم: [**الجلال**] بالصفات السلبية، و[**الإكرام**] بالثبوتية، وعكس آخرون[(١)].

ونقل الكمال ابن أبي شريف[(٢)] في "حاشية شرح العقائد" عن القشيري في "التحبير": أن الجلال: استحقاق أوصاف العلو، وهي الصفات الثبوتية والسلبية.

قال: وعلى هذا فالإكرام المقابل له في الآية؛ إكرام العباد بالإنعام عليهم، وعلى هذا جرى الغزالي في "المقصد الأسنى".. انتهى.

(**فيجلس**) أي: حينئذ بعد الفناء (**في ميدان التوحيد**) الحقيقي -هو استعارة للتمكن في هذا المقام-، أي: يكون موحداً حقيقةً؛ لفنائه عن نفسه، وعما سوى الله عز وجل، وبفنائه بالحق،

---

(١) انظر التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي عند تفسير هذه الآية.

(٢) الكمال بن أبي شريف: هو محمد بن محمد بن أبي بكر المري المقدسي الشافعي (كمال الدين أبو المعالي) فقيه. أصولي، مفسر، متكلم، ولد بالقدس في ٨٢٢هـ. وقرأ على بعض علمائها القرآن بالروايات، والعربية، والأصول، والعروض، والمنطق، والحديث، والفقه، ورحل إلى القاهرة، وأخذ عن علمائها؛ كابن حجر، والشمس القاياتي، والعز البغدادي، وغيرهم. وسمع بالمدينة على المحب الطبري، وغيرهم. وبمكة على أبي الفتح المراغي، وغيره. واستوطن القاهرة، وانتفع به أهلها، ثم عاد إلى بيت المقدس وتولى عدة مدارس، وتوفي بها في ٩٠٦هـ.

فيفهم حقيقة معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[١] أي: أزلاً وأبداً، فإن ما عداه سبحانه هالك في ذاته، معدوم متلاشٍ بالنظر إلى نفسه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما هو عليه كان)[٢].

قال ابن عطاء الله: «ما حجبك عن الله وجود موجود معه، وإنما حجبك عنه توهم وجود موجود معه»[٣].

---

(١) سورة القصص: آية [٨٨].

(٢) هذه حكمة من الحكم العطائية رقم الحكمة (٣٧) وأصله حديث البخاري (كان الله ولم يكن شيء غيره) وسيأتي، ومعناها: أن كينونة الله تعالى لا يصحبها زمان ولا مكان، فإنهما من مخلوقاته. والمراد من هذه الحكمة: أنه لا شيء معه في أبده، كما لم يكن معه شيء في أزله؛ لثبوت أحديته (شرح الحكم العطائية للشيخ عبدالمجيد الشرنوبي ص٤٨).

(٣) الحكم العطائية رقم الحكمة (١٣٧) والمعنى: ما حجبك أيها المريد -المحجوب عن الله تعالى- وجود موجود من الأكوان الدنيوية أو الأخروية معه، إذ لا وجود في الحقيقة لما سواه، ولكن حجبك عنه تعالى توهم موجود معه، أي: توهمك أن ما سواه له وجود، والتوهمات باطلة لا حقيقة لها. (شرح الحكم للشرنوبي ص١٠٦-١٠٧).

وقال من جملة أبيات له:

وحديث «كان الله وليس شيء غيره»[١]

يـقضي به الآن اللـبيب العـاقـل

(فيكون مترنماً) أي: مصوتاً على وجه الطرب لحصول الظفر بالمطلوب قائلاً بلسان الحال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾[٢] إذ لا يعلم السالك في هذا المقام موجوداً سواه تعالى.

(١) هذا رواه البخاري في كتاب الخلق (٦/ ٢٨٦) ولفظه عن عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض» وفي رواية «لم يكن شيء قبله».

قال القسطلاني في شرح البخاري (٥/ ٤٤٩) ومن ثم جاء قوله «ولم يكن شيء غيره» لنفي توهم المعية وفيه رد على من توهم من قوله (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء) أن العرش لم يزل مع الله. اهـ.

(٢) سورة غافر: آية [١٦].

سئل الجنيد[1] عن التوحيد فقال: معنى تضمحل فيه الرسوم، وتندرج فيه العلوم، ويكون الله كما لم يزل، أي: هو معنى يخلقه الله تعالى في قلب الموحد العارف به، ويغلب على قلبه حتى لا يرى غيره تعالى، كما كان في الأزل. كذا قرره القاضي زكريا[2] في شرح الرسالة.

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز (أبو القاسم) صوفي؛ سيد هذه الطائفة، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري؛ نسبة لعمل القوارير، وعرف بالخزاز؛ لأنه كان يعمل الخز. وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة، صحب خاله السري، والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب. (الرسالة القشيرية ص٤٣٠). قال أحد معاصريه: (ما رأت عيناي مثله: الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه).

من كلامه: (طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به). توفي سنة ٢٩٧ هـ. (الأعلام ٢/ ١٣٧-١٣٨، وانظر طائفة من أخباره في صفوة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٤١٦).

(٢) القاضي زكريا (٨٢٦-٩٢٦): زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي القاهري الشافعي، (زين الدين، أبو يحيى) عالم مشارك في الفقه، والفرائض، والتفسير، والقراءات، والتجويد، والحديث، والتصوف، والنحو، وغير ذلك. (معجم المؤلفين ٤/ ١٨٤، وشذرات الذهب لابن العماد ٨/ ١٣٤-١٣٦، والبدر الطالع للشوكاني ٢/ ٢٥٢-٢٥٣).

(**وحصول هذا الحال**) المشار إليه، وهو التوحيد الحقيقي الذي لا يحصل إلا بعد الفناء عما سوى الله تعالى (**بلا صحبة الشيخ**) المرشد الكامل الناصح والسلوك على يديه (**متعسّر**) فيكون طلب الشيخ متعيناً على طالب الحق، إذ قالوا: «من لا شيخ له؛ فشيخه الشيطان».

وقال بعضهم: «اصحبوا مع الله، فإن لم تقدروا؛ فاصحبوا مع من يصحب مع الله».

وإنما قال: "متعسّر" ولم يقل "متعذر"؛ لأنه قد يحصل بعناية ربانية، أو جذبة رحمانية، لكنه نادر جداً، وليس بمستحيل.

فقد ذكر سيدي الشيخ في "تعريب الرشحات"، قال: «قال الشيخ يعقوب: وصلتُ إلى صحبة شيخ في ترمذ، وكان يبالغ في أنه لا يصل أحدٌ إلى الله تعالى بغير الشيخ، فقلت له: إن آية ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1]، يدل على أنه يكفي العمل بالكتاب والسنة، ولا يكون تحصيل الشيخ المُقتدى واجباً، فسكت الشيخ ولم يجب

---

(١) سورة المائدة: آية [٣].

بشيء، ثم عرضت هذا على الخوجة نقشبند قدس سره فاستحسنه».

فينبغي للطالب أن يجتهد في طلب الشيخ، فإنه إذا صدق في طلبه وتوجهه، فالمرجو من كرم الله سبحانه أنه يتيسر له وجود الشيخ؛ ببركة الصدق مع الله، فإن الصدق أصل كل مقام، ومن جَدَّ وجَدَ.

(**وقبل تيسر صحبة الشيخ**) أي: المرشد الكامل؛ (**ينبغي للطالب أن يكون لسانه مرطوباً**) أي: رطباً (**بالصلاة على النَّبيِّ ﷺ**) أي: يكون لسانه ليناً بها، ملازماً لها في غالب أوقاته، ويكون في ذلك متوجهاً إلى الاستمداد من حضرته الشريفة ﷺ، فإن الصلاة عليه ﷺ تمحق الذنوب؛ بل هي أمحق[1] للذنوب من الماء البارد للنار؛ كما روي عن الصديق رضي الله عنه[2]، والأخلاق الرديئة وظلمات القلب أكثرها ناشي من الذنوب.

---

(١) أمحق: من محق الشيء يمحقه محقاً إذا أبطله ومحاه، وإنما كان كذلك؛ لأنها من الحسنات. والحسنات كما قال تعالى تذهب السيئات، وهو محمول على الصغائر. (مسالك الحنفاء ٢١٠٨).

(٢) ذكره السخاوي في القول البديع (٢١١٥)، وقال: وكذا رويناه من طريق هبة الله بن أحمد الميورقي، وهو عند التميمي في ترغيبه بلفظ: «الصلاة على النبي ﷺ أفضل من=

فإذا تطهر العبد منها ببركة الصلاة على النبي ﷺ، وصفت مرآة قلبه من الأكدار القائمة على وجهها، المانعة لها من انتقاش الحقائق فيها؛ تأهل لفيضان أنوار العلوم والمعارف، وصار مستعداً لظهور جلية الحق فيه.

(**والاستغفار**)؛ لأنه أيضاً يمحو الذنب، ويخفف الخطيئة، فقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «ما أصر من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة»(١).

= عتق الرقاب، وحب رسول الله ﷺ أفضل من مهج الأنفس أو قال من ضرب السيف في سبيل الله»، وسنده ضعيف. وذكره القسطلاني في مسالك الحنفاء (ص١٧٩)، وقال: (رواه النميري وابن بشكوال موقوفاً). وقول الحافظ ابن حجر في بعض فتاويه: (إنه كذب مختلق - يعني به إضافته إلى النبي ﷺ -).

(١) رواه أبو داود (١٥١٤) وسكت عنه والترمذي (٣٥٥٩) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ، وقال: غريب وليس إسناده بالقوي.

قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين: (قال الزيلعي: إنما لم يكن قوياً؛ لجهالة مولى أبي بكر الراوي عنه، لكن جهالته لا تضر؛ إذ تكفيه نسبته إلى الصديق) اهـ.

وقال المناوي: وفيه أيضاً عثمان بن واقد؛ ضعفه أبو داود نفسه. قلت: عثمان بن واقد؛ لم أر له ذكراً في كتاب الضعفاء للذهبي، ولا في ذيله، ولعله عثمان بن فائد، فلينظر ذلك.

ومعنى الحديث: ما أقام على الذنب من استغفر، أي: من تاب توبة صحيحة؛ لأن التوبة بشروطها ترفع الذنوب كلها، وإن عاد في اليوم سبعين مرة؛ فإن رحمة الله لا نهاية لها ولا غاية.

وأصل الاستغفار: استفعالٌ من الغَفْرِ، وهو: الستر. والغفر أيضاً إلباس الشيء ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء؛ فإنه أغفر للوسخ(١).

والمغفرة من الله تعالى: أن يصون العبدُ عن أن يمسه العذاب، وسيأتي فيه زيادة بيان، أي: فينبغي للطالب الذي أعوزه وجود الشيخ؛ أن يكثر من الصَّلاة على رسول الله ﷺ، ومن الاستغفار؛ بوصف التنصل من الذنب، والتضرع بين يدي الرب، فإن مداومته ذلك؛ قد تقوم له مقام الشيخ في الجملة، ويتيسر به مطلوبه إن شاء الله تعالى، إذا علم الله صدقه. فإنه ﷺ وسيلة العالمين إلى الله تعالى، وهو باب الله الأعظم، ومن قصد باب كريم لا يخيبه، والله تعالى أكرم من أن يحرم القاصد إليه بصدق.

ويؤيد ما أشار إليه الشيخ؛ ما ذكره الإمام زروق(٢) رحمه الله؛ نقلاً عن بعض مشايخه في "نصيحة الطالب"، إذ قال: «وعليه

---

(١) في نسخة (ب) للتوسخ.

(٢) هو أبو الفضل (شهاب الدين أبو العباس) أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى؛ الفاسي مولداً، يعرف بـ[زروق] نسبةً لجده، وقد كان أزرق العينين، وهي زرقة موجودة لدى البربر، فهو من قبيلة البرانس، إحدى القبائل البربرية، التي تسكن بين تازا وفاس. ولد في كناشته في يوم الخميس ٨٤٦ هـ، من كبار العلماء رحمه الله رحمة واسعة.

بدوام ذكر الله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ؛ فهي سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى؛ إذا لم يلق الطالب شيخاً مرشداً.. » انتهى كلامه.

وذلك أن النبي ﷺ هو المرشد الكامل، وهو الوسيلة العظمى، وباب الله الأعظم، كما قال الجنيد: «الطرق إلى الله تعالى مسدودة؛ إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ».

فإذا تمسك المريد بشريعته، وعمل بها في ظاهره وباطنه، وداوم على الصَّلاة عليه ﷺ، فحريٌّ أن يصل إليه من فيض روحانيته ﷺ ما يشفي أمراضه القلبية، وذلك على مقدار الاستعداد، وحسب[1] القوابل، وصدق التوجه، كما كان أويس القرني يتربى من روحانيته ﷺ من غير ملاقاة، وإنما احتيج إلى الوسائط؛ لقصور أكثر الخلق عن الاستمداد من تلك الحضرة الكاملة العلية، التي لا يدرك طورها عقولُ الخَلْقِ، ولا يعلم حقيقتها إلا الواحد الحق، فإنه ما عرف حقيقته ﷺ كما هي إلا ربُّه؛ الذي أعطاه، وهيأه لما أعطاه، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ

(١) في نسخة (ب) وحبسه.

ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾[1]، فلأجل ذلك احتيج في سلوك طريق الهداية إلى وارث عنه ﷺ، يكون مفيضاً ما حصل له من وراثته العلمية، وعلومه اللَّدنية، على من دونه في الرتبة.

ونقل عن الشيخ أحمد بن موسى المشرع: «من لم يكن له شيخ يربيه ويرقيه، ويوصله إلى الله تعالى، فليلازم الصلاة على النبي ﷺ، فهي تُرَبِّيهِ بأحسن الآداب النبوية، وتُهَذِّبُهُ بأشرف الأخلاق المحمدية، وتُرَقِّيهِ إلى أعلى ذروة الكمال، وتُوصِلُهُ إلى المحل الأسنى من حضرة الكبير المتعال، وتُنَعِّمُهُ برؤية الله عز وجل وقربه؛ مع النبي ﷺ وآله وصحبه».

وسئل بعضهم عن قراءة القرآن والصلاة على رسول الله ﷺ؟ فقال: الصلاة على رسول الله ﷺ هي قرآن الفرقان، وفرقان القرآن. أي: تنتج لصاحبها شهود الذات في حقائق الصفات، وحقائق الصفات في معاني الذات.

---

(١) سورة النساء: آية [١١٣].

وقال الشيخ أبو الحسن البكري[1] -قدس الله سره-: «من أكثر الصلاة على النبي ﷺ؛ امتزجت روحه بروحه ﷺ».

وقال أيضاً: «من ثمرات الصلاة على النبي ﷺ: رؤية النبي ﷺ عياناً ويقظةً، ومحادثته شفاهاً، بحيث يزيد بياناً. ولكن هذا لا يقع إلا لمن شغف بها، فجعلها همه مع طهارة سره».

وقال الشيخ ابن عراق: «اعلم يا أخي أنه ورد في السنة أن الصلاة على النبي ﷺ كنز من كنوز الجنة، ولا سبيل إلى فتح هذا الكنز إلا بثلاث: الاتباع، والاتضاع، والاقتناع. فافهم يا حبيبي، فاتبع ولا تبتدع، واتضع ولا ترتفع، واقتنع ولا تتسع، وقل: اللهم كما جعلتني في أمته، فامنن علي بمحبته، واتباع سنته».

وفائدة ذلك: موافقة الله تعالى[2] وملائكته.

---

(١) هو علي بن محمد بن عبدالرحمن بن أحمد (تاج العارفين) فقيه، محدث، مفسر، صوفي، أخذ عن: شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وبرهان الدين بن أبي شريف، وجماعة. وَجَدَّ واجتهدَ حتى صار يلقي دروساً في الأزهر؛ في التفسير، والتصوف. من مؤلفاته: ثلاثة تفاسير؛ صغير وكبير وأوسط، وشروح على المنهاج كذلك، وشرح الروض، والعباب، وعدة رسائل في التصوف. توفي سنة نيِّفْ وخمسين وتسعمائة. (الكواكب الدرية رقم الترجمة ٧٧٢ ومعجم المؤلفين ٧/ ٢٠٨).

(٢) أي: وإن اختلفت الصلاتان، فإن صلاتنا عليه دعاء، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف. (مسالك الحنفاء ٢٠٧).

ونتيجتها: انطباع صورته الكريمة بكثرة الصَّلاة والسلام على رسول الله ﷺ[1].

وثمراتها: المحبة، والانقياد إليه. فهي سبب لبلوغ المآرب، ونيل المطالب، من العلوم اللدنية، والمعارف الربانية، والتجليات الإلهية، وإنها تكفي الإنسان عن جميع الأوراد؛ لما صح في الحديث: «كم أجعل لك من صلاتي» إلى آخره.

كذا وجدت هذه النقول عن الأئمة المذكورين بخط بعض الفضلاء.

وأشار بقوله «إلى آخره»؛ إلى ما رواه الترمذي[2] عن أُبَيٍّ بن كعب قال: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قلت: الربع، قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: النصف، فقال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: فالثلثين، قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: إذاً تكفى

---

(١) وذلك أن المداومة على الصلاة والسلام عليه ﷺ، وإخلاص القلب، وتحصيل الشروط والآداب، وتدبر المعنى؛ حتى يتمكن حبه من النفس فـ (المرء مع من أحب) رواه الشيخان وغيرهما. (الجامع الصغير رقم ٩١٩٠) والحب يوجب الاتباع.

(٢) رقم (٢٤٥٩).

همك ويُغْفَر لك ذنبك، وفي رواية: «إذاً يكفيك الله ما هَمَّك من أمر دنياك وآخرتك»[١].

ووجدت أيضاً منقولاً عن السنوسي[٢]؛ ما هو صريح في ذلك؛ وصورته: «رأيت لبعض أئمة التصوف: أن من فقد مشايخ التربية؛ فليكثر من الصَّلاة على النبي ﷺ، فإنه يصل بها إلى مقصوده». ولعله أخذ ذلك من قوله ﷺ لأُبَيّ: «إذاً تكفى همك ويغفر ذنبك».

ولا شك أن المريد الطالب لمشايخ التربية، قد اهتم بتنقية نفسه وشفاها، من علائق سواه تبارك وتعالى، فإذا أكثر من الصلاة على نبينا ﷺ؛ كُفِيَ هذا الهم؛ الذي اهتم به، والله أعلم.. انتهى.

وإنما أطنبنا في هذا المقام؛ تثبيتاً لمقتضى الكلام، وترغيباً في الإكثار من الصلاة على سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وأما الاستغفار؛ فيكفي فيه من الشواهد قوله ﷺ: «من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم

(١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) هو الإمام أبو عبدالله محمد بن يوسف السنوسي الحسني، صاحب العقيدة المشهورة؛ والمسماة بأم البراهين رحمه الله رحمة واسعة.

فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»(١) رواه الإمام أحمد، وحديث أنس - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم؛ إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم؛ لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم؛ لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»(٢) رواه الترمذي.

وهل الاستغفار: التوبة أو طلب المغفرة؟ فيه خلاف يأتي بسطه.

ومعنى قول الشيخ: (**أيُّ: استغفار يكون**) أي: جميع ألفاظ الاستغفار مفيدة للمقصود، فلا يتقيد بلفظ مخصوص، وإن استعمل الوارد في القرآن أو في السنة؛ فهو أفضل وأقرب لحصول الإجابة. فمن ذلك؛ ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ: «من قال:

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٥١٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٥٦) وابن ماجه رقم (٣٨١٩) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٢) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: (الحاكم فيه جهالة)، رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٤٥).

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٥٤٠) والدارمي رقم (٢٧٩١) وحسّن السخاوي إسناده، وانظره في أذكار النووي رقم (١٠٥٧).

أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه؛ وإن كان قد فر من الزحف»[1].

ووردت كيفيات أُخَرْ مذكورة في كتب الحديث، ثم قال الشيخ: (**وأصدق الاستغفار هذا: «اللهم اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»**[2]).

وإنما قال الشيخ: وأصدقه؛ لأن هذا الاستغفار المذكور؛ مجرد دعاء، يتضمن سؤال المغفرة والتوبة من الله الكريم، بخلاف قول القائل: «**أستغفر الله وأتوب إليه**»؛ فإنه نقل عن بعض السلف؛ أنه لا ينبغي أن يقول ذلك؛ لأنه يكون ذنباً وكذباً، إن لم

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٥١٧) والترمذي رقم (٣٥٧٧) والحاكم (٢/ ١١٨) عن بلال بن يسار عن أبيه عن جده. قال الحافظ: وإسناده جيد متصل. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود، وقال: صحيح الإسناد على شرطهما؛ إلا أنه قال: يقولها ثلاثاً. وقال الحافظ المنذري: إسناده جيد متصل. (الفتوحات الربانية لابن علان ٧/ ٢٨٨).

(٢) هذا استغفار نبوي، فعن ابن عمر ﷺ، قال: «كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة؛ رب اغفر لي وتب عَلَيَّ، إنك أنت التواب الرحيم». رواه الترمذي (٣٤٣٠) وقال: حديث صحيح، ورواه أبو داود (١٥١٦)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٨٥). قال ابن علان في الفتوحات: ورواه النسائي والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد.

يفعل؛ بل يقول: «**اللهم اغفر لي وتب عليَّ**»[1]، وإن كان المختار خلافه، ثم اختُلِفَ في المراد من الاستغفار حيث ورد، فقيل: المراد به التوبة الصحيحة؛ المستجمعة لشروطها. وهو الأصح؛ إذ ليس في الاستغفار مع عدمها كبير فائدة، فإنها التي تمحو الذنب بالكلية، كبيراً كان أو صغيراً، حتى سموا الاستغفار بدونها توبة الكذابين. كما نقل عن الفضيل بن عياض[2]، ورواه بعضهم عن

---

(١) ذكره الإمام النووي في الأذكار (ص٦٢٢)، ونسبه إلى الربيع ابن خُثَيْمْ ﷺ، كما سيذكره الشارح فيما سيأتي، وقال الإمام النووي في الأذكار: وهذا الذي قاله من قوله: اللهم اغفر لي وتب علي؛ حسن، وأما كراهية أستغفر الله، وتسميته كذباً؛ فلا نوافق عليه؛ لأن معنى أستغفر الله: أطلب مغفرته، وليس في هذا كذب، ويكفي في رده حديث ابن مسعود المذكور قبله. وهو قوله عليه الصلاة والسلام «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفرت ذنوبه وإن كان فر من الزحف» قلت: فلعل ما نقل عن بعض السلف سهو أو سبق قلم، والمراد بمغفرة الذنوب في الحديث محمول على الصغائر دون الكبائر إذ لا يكفرها إلا التوبة بشروطها وهو الندم، والإقلاع عما تلبس به، والعزم على أن لا يعود إليه، وهذه هي التوبة النصوح، نسأل الله سبحانه أن يرزقنا توبة نصوحا، وأن يميتنا عليها، وأن يغفر لنا جميع ذنوبنا إنه جواد كريم. ويؤيد ما ذكرنا من أن الكبائر لابد فيها من التوبة لقوله عليه الصلاة والسلام «ما من مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله» رواه مسلم من حديث عثمان ﷺ.

(٢) وهو: (أبو علي) الفضيل بن عياض، ولد سنة (١٠٥ هـ)، ومات سنة (١٨٧ هـ) من ناحية مرو، وقيل: ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه =

الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، بمعنى أنه ليس توبة حقيقية، خلافاً لما يعتقده العامة؛ لاستحالة التوبة مع الإصرار، ولذا قال بعض السلف: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير».

وورد: «المستغفر من ذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه»[1].

وقال بعضهم: الاستغفار بلا ندم؛ ذنب من الذنوب. وهذا القول هو الذي ينبغي أن يحمل عليه كلام الشيخ، فإن الاستغفار بهذا المعنى هو الذي تحصل به التوبة؛ التي هي أول مقامات الطريق عند المشايخ.

قال بعضهم: وكون استغفارنا يحتاج إلى استغفار، أي: لكونه يحصل مع غفلة قلوبنا؛ لا يوجب ترك الاستغفار، بأن

= عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها، سمع قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(الحديد: ١٦)، فقال: يا رب قد آن، فرجع؛ فآواه الليل إلى قرية، فإذا فيهم رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع عليها: فتاب الفضيل وأمنهم. وجاور الحرم حتى مات. (الرسالة القشيرية ص ٤٢٤).

(١) بعض حديث رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٧١٧٨) وابن أبي الدنيا في كتاب التوبة رقم (٨٥) وغيرهما عن ابن عباس ﷺ.

يكون تركه خيراً منه؛ بل الأولى الإتيان به، وإن احتاج إلى استغفار؛ لأن اللسان إذا أَلِفَ ذكراً؛ يوشك أن يألفه القلب، فيوافقه فيه.

ولذا قال صاحب الحكم: «لا تترك الذكر؛ لعدم حضورك مع الله فيه، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

قال ابن حجر[1] في "شرح الأربعين النووية": «وكون المعني بالاستغفار والتوبة، هو الموافق للقواعد بالنسبة للكبائر، إذ

---

(١) ابن حجر: أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الشافعي (شهاب الدين أبو العباس) كان بحراً في الفقه، إمام اقتدى به الأئمة، ولد في محلة الهيتم من أقاليم الغربية بمصر سنة (٩٠٩هـ)، مات أبوه وهو صغير؛ فكفله الإمامان شمس الدين بن أبي الحمائل وشمس الدين الشناوي، ونقله إلى الجامع الأزهر، وجمعه بعلماء مصر، فأخذ عنهم، وبرع في علوم كثيرة، وقدم إلى مكة سنة (٩٣٢ هـ)، ثم عاد إلى مصر، ثم حج سنة (٩٣٧هـ)؛ وجاور في ذلك الوقت بمكة، وأقام بها يفتي ويدرس ويؤلف إلى أن مات سنة (٩٧٤ هـ)، ودفن بالمعلاة.
مشارك في أنواع من العلوم، له مؤلفات كثيرة طبع بعضها، وأما شرح مشكاة المصابيح فلم يطبع. من مؤلفاته أيضاً: تحفة المحتاج لشرح المنهاج؛ للنووي في فروع الفقه =

لا يكفرها إلا التوبة، بخلاف الصغائر، فإن لها مكفرات؛ كاجتناب الكبائر، والوضوء، والصلاة، وغيرها. فلا يبعد أن يكون الاستغفار مكفراً لها أيضاً..» انتهى.

وقال ابن نجيم[1] من الحنفية: «الكبيرة لا يكفرها إلا التوبة، وأما الصغيرة فلها مكفرات كثيرة، منها: الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وصوم رمضان، والاستغفار، واجتناب الكبائر، على أحد القولين».

وقيل: المراد مجرد الاستغفار، أي: طلب المغفرة، وإن لم تقترن بتوبة، ولا شك أنه يحصل به تخفيف الذنب وإن لم يحصل به محوه بالكلية، إلا أن يتفضل الله سبحانه؛ فهو على كل شيء قدير.

= الشافعي. (معجم المؤلفين ٢/ ١٥٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٨/ ٣٧٠-٣٧٢، والبدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٩).

(١) ابن نجيم المصري: هو زين الدين بن إبراهيم بن محمد بن نجيم المصري الحنفي، المشهور (بابن نجيم)، ولد بالقاهرة سنة (٩٢٦ هـ)، أخذ العلم عن شيوخ عصره، منهم: العلامة قاسم بن قطلوبغا، والبرهان التركي، وشرف الدين البلقيني، وشهاب الدين الشلبي، والشيخ أمين الدين عبدالعال، وغيرهم. وأجازوه بالإفتاء والتدريس؛ فأفتى ودرس في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق. أخذ الطريق عن العارف بالله سليمان الخضيري. (الطبقات السنية في تراجم الحنفية ١/ ٢٧٥، الأعلام ٣/ ٦٤).

ويقوي هذا القول مناقشة الإمام النووي[1] في "الأذكار" للربيع ابن خُثَيْم في كلامه المتقدم، إذ قال بعد نقله عنه: «وهذا الذي قاله من قوله: اللهم اغفر لي وتب علي؛ حسنٌ، وأما كراهة أستغفر الله، وتسميته كذباً؛ فلا يُوافَقُ عليه؛ لأن معنى أستغفر الله: أطلب مغفرته، وليس في هذا كذب، قال: ويكفي في رده حديث ابن مسعود المذكور قبله..» انتهى.

وكذا قال بعضهم: يؤخذ من حديث ابن مسعود؛ أن الكبائر تغفر بالتوبة والاستغفار، مشيراً إلى أن الاستغفار غير التوبة، وكذا ما نقل بعض شراح المشكاة، عن السبكي مما صورته: «أن الاستغفار طلب المغفرة، وهو باللسان والقلب أبلغ من أحدهما، لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة».

---

(١) النووي: هو يحيى بن شرف بن مرى الدمشقي الشافعي (٦٣١-٦٧٦ هـ) فقيه، محدث، حافظ، لغوي. ولد في نوى من أعمال حوران، قرأ القرآن بها، وقدم دمشق، فسكن المدينة الروحانية، وولي مشيخة دار الحديث، وتوفي في نوى ودفن بها عام (٦٧٦هـ). من مؤلفاته: شرح صحيح مسلم، والأذكار، وروضة الطالبين، ومنهاج الطالبين. (معجم المؤلفين ١٣/ ٢٠٢).

ثم قال في معناه أي: لا يمحصان قطعاً وجزماً؛ لأن الاستغفار دعاء، فنسأله سبحانه أن يرزقنا توبةً كاملةً، ومغفرةً شاملةً، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وأما التوبة الصحيحة، فإنها توجب محو الذنب قطعاً أو ظناً؛ على قولين، بناءً على أن قبولها قطعي أو ظني؛ فيه قولان، أي: فيما عدا التوبة من الكفر.

قال الإمام حجة الإسلام(١) في "الإحياء" -ما معناه-: «إن قبول التوبة عند تحققها؛ أمر قطعي، لِقَطعية وقوع المسبب عند

---

(١) نقل الإمام النووي في الأذكار (ص ٦٠٩) عن الإمام الغزالي في الإحياء أن آداب الدعاء عشرة:

- أن يترصد الأزمان الشريفة: كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، والثلث الأخير من الليل، ووقت السحر.

- أن يغتنم الأحوال الشريفة: كحالة السجود، والتقاء الجيوش، ونزول الغيث، وإقامة الصلاة وبعدها.

- استقبال القبلة، ورفع اليدين، ويمسح بهما وجهه في آخره.

- خفض الصوت بين المخافتة والجهر.

- أن لا يتكلف السجع، وقد فسر به الاعتداء في الدعاء.

- التضرع والخشوع والرهبة. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ الأنبياء آية (٩٠)، وقال تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ الأعراف آية (٥٥).

=

أسبابه العادية، ومن شك في ذلك لم يفهم أسرار الشريعة، إلى آخر كلامه».

ولا يتأتى الخلاف المذكور في المراد بالاستغفار، الاستغفار الذي ذكره الشيخ؛ لأن هذا دعاء محض، ليس من ذلك القبيل، وإنما الخلاف في نحو «**أستغفر الله وأتوب إليه**»، نعم ينبغي أن يكون هذا الاستغفار الذي ذكره الشيخ ونحوه؛ مستجمعاً لآداب الدعاء؛ المحتوية على ما يعد شرطاً، أو ركناً، أو غير ذلك؛ كحضور القلب، وتجنب الحرام في المأكل والمشرب والملبس، والإخلاص لله تعالى، والثناء على الله سبحانه أولاً وآخراً، والصلاة على النبي ﷺ كذلك، والخشوع، والتمسكن، والاعتراف

= - أن يجزم بالطلب، ويوقن بالإجابة، ويصدق رجاؤه فيها. ودلائل ذلك كثيرة مشهورة.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: لا يمنعن أحدكم من الدعاء؛ ما يعلمه من نفسه، فإن الله تعالى أجاب شر المخلوقين إبليس إذ ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ الأعراف آية (١٤-١٥).

- أن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثاً، ولا يستبطئ الإجابة.

- أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى، [قلت: وبالصلاة على رسول الله ﷺ بعد الحمد لله تعالى والثناء عليه]، ويختمه بذلك كله أيضاً.

- وهو أهمها، والأصل في الإجابة، وهو: التوبة، ورد المظالم، والإقبال على الله تعالى.

بالذنب بين يدي الله تعالى، وغير ذلك من الآداب المبسوطة في موضعها.

وورد هذا اللفظ بخصوصه من حديث ابن عمر، قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «**ربي اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**»[1]، وفي رواية بدل الرحيم، الغفور.

وورد بلفظ اللهم، في حديث آخر، عن رجل من الأنصار يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول في دبر الصلاة: «**اللهم اغفر لي، و تب علي، إنك أنت التواب الرحيم؛ مائة مرة**».

وقال لقمان الحكيم: عَوِّدْ لسانك اللهم اغفر لي، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً.

وإنما قال الشيخ: أصدق، ولم يقل أفضل؛ لأنه ورد في الحديث عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه**

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٥١٦) والترمذي رقم (٣٤٣٠) وابن ماجه رقم (٤٣٢٦).

لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي؛ فهو من أهل الجنة ومن قالها في الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح؛ فهو من أهل الجنة»[١]، وإنما كان هذا سيد الاستغفار؛ لما اشتمل عليه من الإقرار بألوهية الله تعالى وخالقيته، والاعتراف بالعبودية له، والإقرار بنعمته، والتوبة إليه من الذنب، التي هي غاية الاعتذار.

وقيل: لأن ذكر الله تعالى فيه بالخطاب كثير.

وقوله: **"وأنا على عهدك ووعدك"** أي: ما عاهدتك عليه وواعدتك من: الإيمان بك، وإخلاص الطاعة لك، أو معناه: إني مقيم على ما عهدته إلي من أمرك، ومتمسك به، ومنتجز وعدك في المثوبة، والأجر عليه.

واشتراط الاستطاعة: اعتراف بالعجز، والقصور عن بلوغ كنه الواجب في حقه تعالى.

وقيل: المراد بالعهد والوعد: ما وقع يوم الميثاق.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٠٦)، والنسائي (٨/ ٢٧٩)، والترمذي رقم (٣٣٩٠)؛ كلهم من حديث شداد. ورواه أبو داود رقم (٥٠٧٠)، وابن حبان في صحيحه رقم (٩٢٩)، والحاكم (٢/ ٤٥٨)؛ كلهم من حديث بريدة.

ومعنى "**أبوء**" أي: ألتزم وأرجع وأقر.

قال الطيبي: اعترفَ أولاً بأنه أنعم عليه، ولم يقيده؛ ليشمل كل الأنعام، ثم اعترف بالتقصير، وأنه لم يقم بأداء شكرها، وعدَّه ذنباً مبالغة في الاعتراف بالتقصير وهضم النفس.

ثم قال الشيخ نفع الله به؛ مخاطباً لمريده المذكور -بصيغة الجمع على ما سبق-: (**إني قد أرسلت لكم ميقاتين**) أي: آلتين؛ يعرف منهما أوقات الليل والنهار، بحسب الوضع الصناعي. (**تزن منهما أوقاتك**) أي: تعرف منهما مقادير الأوقات، (**فما صُرِفَ في غفلة، فاستغفر عنه، وما صرف في عبادة الله فاشكر منه، ولا تعتمد عليه**).

أقول: في هذا تنبيه عظيم للإنسان، وذلك أن يعلم أن الله تعالى لم يخلقه عبثاً، ولم يخلقه سدًى مُهمَلاً، وإنما خُلِقَ ليصرف أوقاته، وجوارحه؛ التي هي من نعم الله عليه؛ في عبادة الله تعالى وخدمته، وأنواع طاعاته، فيفوز مع الفائزين بمرضاته، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]، فإن ضيع ذلك،

---

(١) سورة الذاريات: آية [٥٦].

وكفر النعمة، ولم يستعمل النعم فيما خلقت لأجله، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً.

ولما كانت النفس خلقت جامحة عن الخير بطبعها، غير منقادة لما يصلحها في معادها؛ بل لا تميل إلا لِلَذَّاتها، ومقتضى شهواتها، أوصى المشايخ الناصحون نفع الله بهم الطالبين، أن لا يغفلوا عن حركاتهم وسكناتهم؛ لأن بضاعة العبد، ورأس ماله؛ هو عمره، ومهما فني العمر، فقد فني رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة، والدنيا مزرعة الآخرة، وكل نَفَس من الأنفاس؛ جوهرة لا قيمة لها، فإذا غفل الإنسان عن ملاحظة نفسه وجوارحه، والتحفظ عليها من الوقوع في معصية الله؛ انقضى عمره على ذلك، وفاته التدارك، وبقي في حسرةٍ وندامةٍ بعد الموت؛ لا آخر لها، إلا أن يَمُنَّ الله عليه بعفوه. وإذا لاحظها وتحفظ عليها، وصار يقودها بزمام الشرع والتقوى، سعد بذلك في الدارين، وصار من عباد الله المفلحين الناجين، وآمنه الله من العذاب، وخفَّ عليه الحساب.

والليل والنهار أربع وعشرون ساعة، وكل ساعة من العمر؛ فلله فيها على العبد حق جديد وأمر أكيد، وقد قالوا:

«الحقوق التي في الأوقات؛ يمكن قضائها، وحقوق الأوقات؛ لا يمكن قضاؤها».

فالحقوق الكائنة في الأوقات هي: وظائف العبادات الظاهرة، من: صلاة، وصيام، وغيرهما؛ فمن فاته شيء منها في وقته المعين له؛ أمكنه قضاؤه في وقت آخر.

وحقوق الأوقات هي المعاملات الباطنة؛ التي تقتضيها أحوال العبد، وواردات قلبه المتلونة عليه، إذ لِكُلٍّ وقتٍ سهمٌ من العبودية؛ يقتضيه الحق من عبده، فلا يأتي وقتٌ إلا بحكمٍ يخصه، وبدخول الثاني يفوت حكم الأول.

قال سيدي الشيخ أبو العباس المرسي(١) -نفع الله به-: أوقات العبد أربعة لا خامس لها، النعمة، والبلية، والطاعة،

---

(١) هو أحمد بن عمر الأنصاري المالكي، قطب الزمان، وقدوة الأنام، وعلم الهداية؛ المشار إليه بالولاية. كان شيخه الشاذلي يقول: (عليكم به، فو الله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه، فلا يمشي إلا وقد أوصله إلى الله).
ولد الشيخ أبو العباس في الأندلس في بلدة (مرسية) سنة (٦١٦ هـ) ونشأ على الصلاح والتقوى، واتصل بالإمام أبي الحسن الشاذلي، وتلقى عنه؛ حتى صار ثاني خلفاء الطريقة الشاذلية، ومات سنة (٦٨٦ هـ) بالإسكندرية. (انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ٢/ ٢٢-٣١).

والمعصية، ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.

فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه؛ إذ هداه إليها، ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية؛ فسبيله الاستغفار والتوبة.

ومن كان وقته النعمة؛ فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله تعالى.

ومن كان وقته البلية؛ فسبيله الرضا بالقضاء، والصبر.

والرضا: رضاء النفس عن الله تعالى.

والصبر: ثبات القلب بين يدي الرب.. انتهى.

فإذا كان يرد على العبد في كل وقت حق جديد؛ فينبغي أن لا يكون غافلاً في كل وقت، عما يقتضيه، وإلا كان مضيعاً لأوقات عمره فيما لا ينفعه، فكل جزء يفوته من العمر خالياً من عملٍ صالحٍ، يفوته من السعادة بقدره، ولا عوض له منه، كما قال ابن عطاء الله: «ما فات من عمرك لا عوض له وما حصل لك منه لا قيمة له».

وقال الجنيد: «الوقت إذا فات لا يستدرك».

وقال الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه-: «بقية عمر المؤمن ما لها ثمن، يدرك فيها ما فات، ويحيي ما أمات»[١].

ونظم بعضهم هذا المعنى فقال:

بقية العمر عندي ما لها ثمن ... وإنْ غداً غير محسوب من الثمن

يستدرك المرءُ فيها ما أفات ... ويحيي ما أمات ويمحو السوء بالحسن

وفي الخبر: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شراً فهو ملعون، ومن لم يكن على الزيادة فهو في النقصان، ومن كان في النقصان فالموت خير له، ومن اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات»[٢] رواه الديلمي.

فليحذر من ضياع الأوقات.

---

(١) كتاب الأزهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار للإمام السيوطي.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث محمد بن سوقة، عن الحارث، عن علي مرفوعاً بسند ضعيف. قاله السخاوي في المقاصد (٤٧١). والشطر الأخير هو أول حديث رواه البيهقي وتمام وابن عساكر وابن النجار من حديث علي بزيادة ولفظه «من اشتاق إلى الجنة؛ سابق إلى الخيرات، ومن أشفق من النار؛ لها عن الشهوات، ومن ترقب الموت؛ صبر عن اللذات، ومن زهد في الدنيا؛ هانت عليه المصائب».

كان المشايخ يحاسبون أنفسهم، وقيل: إنَّما سمي الحارث بن أسد المحاسبي؛ لكثرة محاسبة نفسه، حتى كان لا يمد يده إلى طعام فيه شبهة إلا ضرب عليه في إصبعه عرق يمنعه من تناوله.

فبعضهم أوصى بمحاسبة النفس في وقتين: مرة في آخر النهار، ومرة في آخر الليل.

وسيدي الشيخ نفع الله به قد راعى المحاسبة على ساعات النهار والليل، فأرسل ميقاتين لمريده المذكور، أحدهما؛ وهو الذي وصل إلى يده، مقداره ساعتان من الساعات النجومية الاثني عشر، ليكون أقرب إلى تذكره الماضي، وأحفظ عن النسيان، فأوصى مريده المذكور بأن يزن أوقاته كلها، أي: يكون مراعياً لها عالماً بمقدار ما مضى منها كل يوم من الساعات اليومية، وما بقي منها؛ بحيث إذا علم أنْ قد مضت ساعتان من النهار ينظر فيهما، ويتأمل فيما اشتغل به فيهما، إلى أن قال: **(فما صرف في غفلة)** أي: سواء كان بملابسة معصية، أو بالانشغال بشيء من المباحات؛ بحيث لا يعد فعلك له طاعة ولا معصية **(فاستغفر عنه)** أي: استغفر الله من جميع ذلك، وتب إليه توبة صادقة، مشتملة على الندم الصحيح، والإقلاع عما تلبست به، والعزم على أن لا تعود إليه، وهذا في المعصية ظاهر، فإنه تجب التوبة عنها.

وأما المباح عند الفقهاء: فليس بذنب حتى تجب التوبة منه عندهم، أو الاستغفار.

لكن عند المشايخ، اشتغال الوقت بما لا يكون طاعة، ولا معيناً عليها؛ ذنبٌ سببه الغفلة، فيتعين عندهم التوبة من ذلك، ولذا قالوا: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من غفلات القلوب، وتوبة خواص الخواص من رؤية كل شيء سوى المحبوب.

رجال لهم سر مع الله خالص فلا أنت من ذاك القبيل ولا أنا

وفي "الرشحات": قال بعض الأكابر: «إن بعد صلاة العصر ساعة هي أفضل الساعات؛ فينبغي أن يكون مشتغلاً فيها بأفضل الأعمال».

فقال بعضهم: «أفضل الأعمال المحاسبة، وهو أن يحسب أعماله كلها، فكل ما هو معصية يستغفر منه ويتوب، وما كان من العبادة يشكر عليه».

وقال بعضهم: «أفضل الأعمال: أن تصحب شيخاً ينتفي ما سوى الله؛ ببركة صحبته، أي: عن القلب، ويميل إلى الله، وينجذب إليه».

وقال أهل التحقيق: «أفضل الأعمال: أن تشتغل بشيء لا يبقى به ميل الخاطر إلى الغير..» انتهى.

والحاصل أنهم يبالغون في ذم الغفلة أكثر من غيرهم، ويتحفظون على الأوقات تحفظاً شديداً، حتى لو لابسوا شيئاً مباحاً؛ لا يلابسونه إلا بنية الطاعة، أو الاستعانة عليها؛ حتى تكون أفعالهم كلها قربات وطاعات، فقد قالوا: «كل من أكل الطعام على غفلة؛ فقد أكله الطعام»، ذكره الشيخ في "جامع الفؤاد".

ويشهد لأقوالهم وأحوالهم الأخبار والآثار، ففي الخبر: «ما من ساعة تأتي على العبد؛ لا يذكر الله فيها؛ إلا كانت عليه حسرة»[1] وفي الحديث أيضاً «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرة»، والتِرة -بكسر التاء المثناة الفوقية وتخفيف

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، عن عائشة ﵂، ولفظه: «ما من ساعة تَمُرُّ بابن آدم، لم يذكر الله فيها بِخَيْرٍ؛ إلا تحسر عليها يوم القيامة». وفيه عمرو بن الحصين العقيلي؛ وهو متروك. (مجمع الزوائد ١٠/ ٧٩).

وذكره المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي. وقال: في هذا الإسناد ضعف؛ غير أن له شواهد من حديث معاذ المتقدم، ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٦١-٣٦٢)، وقال: غريب من حديث عمرو، وإبراهيم تفرد به ابن علاثة.

الراء-: النقص، وقيل: الضيقة، وقيل: الحسرة. وفي حديث أيضاً: «ما جلس قوم مجلساً؛ لم يذكروا الله تعالى فيه، ولم يصلوا على نبيهم فيه؛ إلا كان عليهم تِرَةٌ، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم»[١].

وقال معاذ بن جبل: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعةٍ مرت لهم لم يذكروا الله فيها»[٢].

فهذه الأخبار كلها تدل على أن مجرد الغفلة؛ ينبغي التوبة منها والاستغفار.

نبه الله قلوبنا من غفلاتها، ونزه سرائرنا عن توهماتها؛ بمنه وكرمه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٨٥٦)، والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٠٤)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٥٨٩) عن أبي هريرة.

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: رواه الطبراني عن شيخه محمد بن إبراهيم الصوري، ولا يحضرني فيه جرح ولا عدالة، وبقية إسناده ثقات معروفون، ورواه البيهقي بإسنادين أحدهما جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٤): رواه الطبراني ورجاله ثقات، وفي شيخ الطبراني محمد بن إبراهيم الصوري خلاف. ورواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٥١٢، ٥١٣).

ثم قال سيدي الشيخ: (**وما صرف في عبادة الله**) أي: طاعته، يعني كذكرٍ، أو تلاوةِ قرآنٍ، أو صلاة، أو صيام، أو صدقة، أو تعليم علم، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو إغاثةِ ملهوفٍ؛ أو إصلاح بين الناس أو عدل بينهم أو إنصاف مظلوم من ظالم أو غير ذلك من العبادات.

(**فاشكر منه**) أي: اشكر الله تعالى من أجل توفيقك لذلك، واشهده نعمةً جديدةً من الله؛ تستوجب عليك شكراً آخر، ولا تعتمد على ذلك، ولا تستحسنه؛ فتقع في الإعجاب، ونسبة العمل إلى نفسك، فإن العُجب مُحْبطٌ للعمل، ورؤية العمل منك شركٌ، فاحذر ذلك غاية الحذر، ومهما اختلج بخاطرك شيء من ذلك فاستغفر الله منه، وداوه بمعجون التوحيد المحض الحقيقي، وهو: شهود الأفعال كلها من الله تعالى، وأنه هو المحرِّك، والمسَكِّنُ، والفاعل لذلك. فلا نسبة لك فيه أصلاً؛ إلا كنسبة الآلة للعمل، وهو نسبة مجازية والأصل الحقيقة.

ثم قال الشيخ: (**بل تحسبه معصيةً وتقصيراً**) يعني: أنه ينبغي لك مع إتيانك بالعمل، واجتهادك في إقامته، والإتيان به على قانون الشرع وآدابه الظاهرة والباطنة؛ أن تشهد أن عملك ناقص، وأنه تقصير محض؛ بل معصية؛ لما اقترن به من الآفات؛

التي لا يسلم منها غالباً إلا من تزكت نفسه عن جميع المخالفات، وتطهرت من جميع الكدورات.

قال الشيخ النهرجوري[١]: «من علامة من تولاه الله في أحواله: أن يشهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهدته، وقلة المراعاة في فقره؛ فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقراً إلى الله تعالى في قصده وسيره، حتى يفنى عن كل من دونه».

وقال إسماعيل بن نجيد[٢]: «لا يصفو لأحد قدم في العبودية؛ حتى تكون أفعاله كلها عنده رياءً، وأقواله كلها عنده دعاوي».

---

(١) هو أبو يعقوب، إسحاق بن محمد النهرجوري، نسبة إلى نهرجور، وهي قرية بالقرب من الأهواز، توفي سنة (٣٣٠هـ)، صحب أبا عمرو المكي، وأبا يعقوب السوسي، والجنيد، وغيرهم. مات بمكة المكرمة مجاوراً. ومن كلامه رحمه الله: (الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب هو التقوى، والناس سفر). (الرسالة القشيرية ص٤٣٨).

(٢) هو أبو عمرو -إسماعيل بن نجيد- صحب أبا عثمان، ولقي الجنيد، وأخذ الحديث عن أحمد بن خليل، وأسند الحديث ورواه، وكان ثقة، توفي بمكة المكرمة سنة (٣٦٦ هـ). (الرسالة القشيرية ص ٤٣٥).

=

وقال أبو يزيد[١] - ﷺ، ورضي عنا به -: «لو صفت لي تهليلة؛ ما باليت بعدها بشيء».

فينبغي للسالك أن يكون متهماً لنفسه على طول جميع الأوقات، فإنها قد لا تسلم في الطاعة من الحظوظ الخفية، كما قال ابن عطاء الله: «حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي».

ومداومة ما يخفى صعب علاجه، وما زال القوم نفع الله بهم يتهمون أنفسهم، ويفتشون عن مداخل حظوظها، خصوصاً إذا ألفت باباً من أبواب العبادات، لمعرفتهم بخُدَعها ومكايدها، فيشوشون ذلك عليها، وينتقلون عنه.

= ومن كلامه: (كل من لم تهذبك رؤيته فهو غير مهذب). (إذا أراد الله بعبدٍ خيراً؛ رزقه صحبة الصالحين، والعمل بما يشيرون به عليه). (والتصوف: الصبر تحت امتثال الأمر والنهي). (من الجهل إظهار العبد محاسنه لمن لا يملك نفعه ولا ضره). (آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه).

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي، الزاهد المشهور، وكان له أخوان زاهدان عابدان أيضاً، وكان هو أجلهم. سئل مرة: بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: (ببطن جائع، وبدن عاري). له مقالات كثيرة، ومجاهدات مشهورة، وكرامات ظاهرة، توفي سنة ٢٦١هـ. (وفيات الأعيان ٣١٢، وطبقات السلمي ٦٧، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٣).

وقد حكي عن أبي محمد، عبدالله بن محمد المرتعش[١] رضي الله عنه أنه قال: «حججت كذا وكذا حجة على التجريد، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي، وذلك أن والدتي سألتني أن أستقي لها يوماً جرة ما، فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كانت بحظ مشوب من نفسي؛ إذ لو كانت نفسي فانية، لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع».

بل كان كثير من الأكابر؛ مع عظيم اجتهادهم، وفناء نفوسهم، وصحة إخلاصهم؛ يخافون من الرياء في أعمالهم، ويحذرون منه أشد الحذر، حتى روي عن الفضيل بن عياض[٢] أنه كان يقول: «من أراد أن ينظر إلى مُرائي فلينظر إليَّ، وسمع مالك بن دينار امرأة وهي تقول: يا مرائي، فقال لها: يا هذه، وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة».

(١) هو أبو محمد، عبدالله بن محمد المرتعش، نيسابوري من محلة الحيرة، وقيل: من (ملقا باذ) - مكان بنيسابور -. صحب أبا حفص، وأبا عثمان، ولقي الجنيد، وكان كبير الشأن، وكان يقيم في مسجد (الشونيزية)، مات ببغداد سنة (٣٢٩ هـ). (الرسالة القشيرية ص ٤٣١).

(٢) تقدمت ترجمته.

وقال يوسف بن الحسين الرازي[1]: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجْتَهِدُ في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت فيه على لون آخر».

فإذا كان هؤلاء الأكابر مع صحة أحوالهم، وشهادة أفعالهم لأقوالهم، يخافون على أنفسهم من الرياء، ويعدون أنفسهم من المرائين، فكيف أمثالنا؛ من لم يصل صلاةً حضر فيها مع مولاه، ولم يعمل عملاً صحَّحَ فيه المعاملة مع الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نسأله سبحانه أن يسامحنا بكل تقصير، وأن يغفر لنا ما اجترحناه من صغير وكبير، وأن يَمُنَّ علينا بالعفو والعافية، والسلامة من كل بلية في الدنيا والآخرة، بمنه وكرمه، إنه على ذلك قدير.

وكيف يأمن العاقل خِدَع النفس وغرورها، وآفات أعمالها، وقد قال الصديق الأكبر[2]: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ

---

(١) هو أبو يعقوب، يوسف بن الحسين الرازي، كان شيخ الري والجبال في وقته، وكان نسيج وحده في إسقاط التصنع، وكان عاملاً أديباً. صحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشبي، ورافق أبا سعيد الخراز. توفي سنة (٣٠٤ هـ). (طبقات الحنابلة ١/ ٤١٨).

(٢) هو سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

﴿لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوٓءِ﴾[١]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل»[٢] فالواجب على السالك؛ أن يبذل جهده في الإتيان بما أمر به، ويعتقد مع ذلك أنه لم يُوَفِّ من حق الله عليه ذرةً، وأنه لم يأت بحقيقة ما طُلِبَ منه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[٤].

---

(١) سورة يوسف: آية [٥٣].

(٢) رواه الحكيم الترمذي من حديث ابن عباس، والبزار من حديث عائشة بسند ضعيف، ورواه هناد بن السري والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن السني في عمل اليوم والليلة من حديث أبي بكر بسند حسن بلفظ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم، تقولها ثلاث مرات في كل يوم». قال العراقي: ورواه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري: «اتقوا هذا الشرك؛ فإنه أخفى من دبيب النمل» ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ولفظه: «خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: يا أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فقالوا: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه». (إتحاف السادة المتقين).

(٣) سورة الأنعام: آية [٩١].

(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها. قال القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٥١٤) عند قوله ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك» أي: =

جعلنا الله سبحانه بجاه نبيه الكريم ﷺ ممن صَدَّقَتْ أفعاله أقواله، ولا جعل حظنا من مثل هذا الكلام، مجرد لقلقة اللسان، إنه الكريم المنان، وبه نستغيث ونستعيذ من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا وهو المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الأكرمين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا معهم برحمته إنه أرحم الراحمين، والحمد لله

= لا أطيق أن أعُدَّ وأحصُرَ فرداً من أفراد الثناء الواجب لك عليَّ في كل لحظة وذرة، وإن اجتهدت في الثناء عليك؛ إذ لا تخلو لمحة قط من وصول إحسان منك إليَّ، وكل ذرة من تلك الذرات، لو أردت أن أحصي ما في طيها من النعم لعجزت، لكثرتها جدًا، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النحل: آية ١٨)، فأنا العاجز عن القيام بشكرك. اهـ كلام ملا علي قاري.

رب العالمين[١]. تم وكمل الشرح بعون الله وتوفيقه عفا الله عن كاتبه ومؤلفه والمسلمين آمين.

(١) تم مراجعته وتصحيحه في ١٨ شهر محرم الحرام سنة (١٤٢٣ هـ)، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وكتبه المفتقر إلى عفو المولى يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

سلم الأفاضل إلى معرفة رؤوس الفضائل

تأليف:

الإمام الهمام برهان الدين إبراهيم بن حسن الملا

الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٠٤٨هـ

تحقيق:

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا





سلم الأفاضل إلى معرفة

رؤوس الفضائل



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بكماله، على جميع فضله ونواله، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله، وبعد:

فهذه كلمات قليلة، في بيان أمهات الفضائل، التي يفتقر إلى نيلها كل عاقل، وقعت جواباً لالتماس أخٍ في الدين فاضل، فمن ثمَّ صار اسْمُها "سلم الأفاضل، إلى معرفة رؤوس الفضائل" فأقول وبالله تعالى التوفيق، والاستعانة على سلوك سواء الطريق:

اعلم أن الفضائل وإن كانت كثيرة جداً بحسب تفاريعها وشعبها، فلها أمهات محصورة باتفاق العقلاء؛ بحيث ترجع كل الفضائل إليها، وكل واحدة منها وسط بين رذيلتين مذمومتين، فمن تمسك فيها بالوسط، فقد نال الفضيلة، ومن خرج عن الاعتدال إلى أحد الجانبين، فقد مال إلى أحد الرذيلتين، وذلك لأن كل واحدة منها لها طرفا إفراط وتفريط، والفضيلة هي الوسط بين الطرفين كما قيل: (كلا طرفي قصد الأمور مذموم).

وفي الحديث: «خير الأمور أوساطها»[١]، وإنما كان كذلك؛ لأن الوسط عدل بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض، فالأطراف يتسارع إليها الفساد، وأما الوسط فإنه محمي بها، ولهذا جاء في مدح هذه الأمة قوله جل وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٢] قيل: أي عدولاً.

وقيل: أي خياراً، وكلاهما متلازمان، فإن الوساطة بمعنى العدالة تستلزم الخيرية؛ لأن العدالة صفة تقتضي اجتماع الفضائل، وانتفاء الرذائل.

وأمهات الفضائل على ما ذكره المحققون أربع وهي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة.

---

(١) قال ابن الغرس: ضعيف. وقال في "المقاصد" (١/ ٣٣٢): رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد لكن بسند فيه مجهول عن علي مرفوعاً، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً: «خير الأعمال أوسطها» في حديث أوله: «دوموا على أداء الفرائض». ويشهد له قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٦٨]. (كشف الخفاء ١/ ٤٧٠).

(٢) سورة البقرة: آية [١٤٤].

وبعضهم يعبر عنها برؤوس الفضائل، فهذه الأربع تشمل جميع أنواع الفضائل وشعبها.

فالثلاث الأول كل واحدة منها وسط بين طرفين، والرابعة حاصلة من اجتماع الثلاث التي قبلها، وكذلك حصولها موقوف على حصول الثلاث الأخر.

وجنس واحد من هذه الأربع يتعلق بالقوة النظريَّة وهي الحكمة، والثلاث الباقية تتعلق بالعملية.

[بيان ما نحن بصدده]

قال العلامة سعد الدين[(١)] في "التلويح": أنَّ الخالق تعالى قد ركب في الإنسان ثلاث قوى:

أحدها: مبدأ إدراك الحقائق، والتشوق إلى النظر في العواقب، والتمييز بين المصالح والمفاسد.

---

(١) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين، من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بتفتازان في بلاد خراسان (٧١٢هـ - ١٣١٢م) وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفي فيها سنة (٧٩٣هـ - ١٣٩٠م) ودفن في سرخس. (الأعلام ٧/ ٢١٩، والتلويح ٢/ ٤٨).

ويعبر عنها: بالقوة النطقية، والعقلية، والنفس المطمئنة، والملكية.

والثانية: مبدأ جذب المنافع، وطلب الملاذ من المآكل والمشارب وغير ذلك، وتسمى: القوة الشَهويَّة، والبهيميَّة، والنفس الأمَّارة.

والثالثة: مبدأ الإقدام على الأهوال، والتشوق إلى التسلط، والترفع، وهي: القوة الغضبيَّة، والنفس اللوَّامة.

ويحصل من اعتدال الحركة للأولى: الحكمة، وللثانية: العفة، وللثالثة: الشجاعة ، فأمهات الفضائل هي هذه الثلاث، وما سوى ذلك فإنما هي تفريعاتها وتركيباتها، وكل منها محفوف[1] بطرفي إفراط وتفريط هما رذيلتان.

أما الحكمة: فهي معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة، وهي: العلم النافع والمعبر عنه: بمعرفة النفس مالها

---

(١) في التلويح المطبوع: (محتوش).

وما عليها، والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[(١)] وبقوله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن»[(٢)].

وإفراطها الجربزة[(٣)] بجيم فراء مهملة فباء موحدة فزاي ثم هاء تأنيث على وزن الدحرجة مصدر من الجَربَز.

في القاموس: الجُربُز بالضم الخب الخبيث معرب كربز، والمصدر الجَربَزة، وهي: استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات، وعلى وجه لا ينبغي كمخالفة الشرائع، مثل: إنكار

---

(١) سورة البقرة: آية [٢٦٩].

(٢) قال في المقاصد (٣١٠) رواه القضاعي في مسنده مرسلاً عن زيد بن أسلم رفعه بزيادة «حيثما وجد المؤمن ضالته فليجمعها إليه»، ورواه الترمذي والقضاعي أيضاً عن أبي هريرة ﷺ، وفي سندهم إبراهيم بن الفضل ضعيف، فلفظ العسكري والقضاعي: «كلمة الحكمة ضالة كل حكيم فإذا وجدها فهو أحق بها» ولفظ الترمذي: «الكلمة الحكيمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها» وقال غريب. (كشف الخفاء ١/ ٤٣٥).

(٣) أي: يحصل من إفراط الحكمة وهو قوة العقل الجربزة وهو الخبث والدهاء والمكر والخداع، ويحصل من تفريطها وضعفها البَله والحمق والبلادة والانخداع. وأما اعتزالها فيصدر عنه حسن التدبير وجودة الذهن ونقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفس.

الحشر، والنشور وغير ذلك من الضلالات نعوذ بالله من علم يعود على صاحبه بالوبال.

وقال الإمام الغزالي[١] في "معارج القدس"[٢]: "أما إفراطها وزيادتها فهو الخَِب، أي: بفتح المعجمة وكسرها، بمعنى: الجربز، وهي حالة يكون الإنسان بها ذا مكر وحيلة بإطلاق الغضبية والشهوية ليتحركا إلى المطلوب حركة زائدة على قدر الواجب". انتهى.

وتفريطها: الغباوة التي هي تعطيل القوة الفكريَّة بالإرادة، والوقوف عن اكتساب العلوم النافعة، كذا ذكر سعد الدين[٣]، ويوافقه قول صاحب "الأخلاق النّصَيْريَّة": "إن الذي

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف. مولده سنة (٤٥٠هـ - ١٠٥٨م) في الطابران وبها توفي سنة (٥٠٥ هـ - ١١١١م) والطابران قصبة طوس، بخراسان . رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته، نسبته إلى صناعة الغزال عند من يقول بتشديد الزاي أو إلى غزالة من قرى طوس لمن قال بالتخفيف. (الأعلام ٧/ ٢٢).

(٢) معارج القدس في أحوال النفس.

(٣) أي: في التلويح على التوضيح.

يزيد في البلادة ما يكون من جهة سوء الاختيار لا من عدم الخلقة".

لكن قال الإمام الغزالي في "معارجه": "وطرف تفريطها ونقصانها البَله وهو حالة للنفس تقصر بالغضبيَّة، والشَّهويَّة عن القدر الواجب، ومنشأ بطؤ الفهم وقلة الإحاطة بصواب الفعال".

ومقتضى كلامه أنها أعم من ذلك لا سيما وقد ذكر أنه يندرج تحتها الغمارة[١] والحمق والجنون وهي راجعة إلى الخلقة. فعلم مما ذكر أن الحكمة نتيجة تكميل القوّة العقليَّة.

ويندرج تحت فضيلة الحكمة حسن التدبير، وجَوْدَة الذهن، وثقابة الرأي، وصواب الظن.

وأما الشجاعة فهي: انقياد السَّبُعِيَّةِ للناطقة أي انقياد القوة الغضبيَّة للقوة العقلية في الأمور؛ ليكون إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب في الأمور الهائلة، حتى يكون فعلها جميلاً، وصبرها محموداً.

---

(١) الغِمر بالكسر، الحقد وزناً ومعنى، والغمر: الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور.

وإفراطها: التهور، أي: الإقدام على ما لا ينبغي بأن يَقْدُمَ الإنسان على الأمور المخطِرة التي يجب في العقل الإحجام عنها.

وتفريطها: الجبن وهو الحذر عن ما لا ينبغي، أي: الحذر من شيء يكون الحذر منه غير جميل، فيصدر من التهور الإقدام لا في محله من غير مبالاة، ومن الجبن الإحجام لا في محله، وهما خلقان مذمومان، ومن الشجاعة يصدر الإقدام والإحجام حيث يجب وكما يجب، وهو الخُلق الحسن المحمود، وبذلك أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ إذ قال عز من قائل: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[(١)]، فإنَّ الشِّدة لا تحمد في كل مقام، ولا الرحمة؛ بل المحمود منهما ما يوافق معيار العقل والشرع.

---

(١) سورة الفتح: آية [٢٩].

فعلم أن الشجاعة نتيجة تهذيب القوَّة الغضبيَّة، ويندرج تحت فضيلة الشجاعة النُّجْدة[١]، وكبَر النفس، والكرم، والاحتمال، والثبات، والوقار.

ومعنى كبر النفس: أن تكون النفس لا تبالي بالكرامة والهوان، ولا تلتفت إلى اليسار والعدم؛ بل تكون قادرة على احتمال الأمور الملائمة وغير الملائمة.

ومعنى النجدة: أن تكون النفس واثقة بثباتها حتى لا تجزع في حال الخوف، ولا يصدر منها حركات غير منتظمة. وبقية الصفات المذكورة معانيها واضح لا نطول بذكرها.

وأما العفة: فهي انقياد البهيمية للناطقة؛ لتكون تصرفاتها بحسب اقتضاء الناطقة، لتسلم عن استعباد الهوى إياها، واستخدام اللذات لها.

وإفراطها: الخلاعة والفجور، أي: الوقوع في ازدياد اللذات، على ما لا يجب أي: بحيث تستقبحها القوة العقلية وتنهى عنها، وعبَّر بعضهم عن ذلك بالشَّرَه.

---

(١) النجدة: الشجاعة والشهامة.

وتفريطها: الخمود بالخاء المعجمة، أي: السكون عن طلب اللذات، بقدر ما رخص فيه العقل والشرع إيثاراً لا خلقة، وهما مذمومان، كما أن العفة التي هي الوسط المحمود، ومعيار الاعتدال: العقل والشرع، ويندرج تحت فضيلة العفة الحياء، والمسامحة[١]، والسخاء، والانبساط، والدماثة، والقناعة، والظرافة[٢]، والمساعدة، وحسن الهيئة، أعني: الزينة المطلوبة التي لا رعونة فيها.

والظرافة بالمعجمة المشالة، والفاء معناها: منع النفس عن هواها. فظهر من ذلك أن العفة نتيجة تهذيب القوة الشهويَّة.

فأطراف هذه الثلاث رذائل، والأواسط فضائل، وإذا امتزجت الفضائل الثلاث حصل من اجتماعها حالة مشابهة هي العدالة، أي: إذا حصلت وامتزج كل واحد بالآخر يحدث من تركيبها حالة متشابهة يكون بها كمال تلك الفضائل وتمامها، وسمي تلك الحال فضيلة العدالة.

---

(١) سمح الرجل سماحة كان من أهل الجود.

(٢) الظرافة: الكياسة.

وإنما كانت متشابهة: لأنها مرَّة تتشابه بالحكمة، ومرَّة بالعفة، ومرَّة بالشجاعة، فهي حالة للقوى الثلاث في انتظامها على التناسب، تحت الترتيب الواجب في الاستعلاء الواجب، فليست هي جزء من الفضائل؛ بل هي عبارة عن جملة الفضائل بمنزلة المزاج الحاصل من اجتماع العناصر. فهي اتفاق جميع القوى بعضها مع بعض في إطاعة القوى المميزة، حتى لا يقع صاحبها باختلاف الأهوية وتجاذب القوى في ورطة الحيرة. وتظهر فيه أثر الانصاف والانتصاف، وعنها عبر بالوساطة المشار إليها بقوله ﷺ: «خير الأمور أوساطها»[1].

قال صاحب "الأخلاق النّصيرية": "واتفق جميع الحكماء المتقدمين والمتأخرين على أن أجناس الفضائل هذه الأربعة، وأنه لا يستحق المدح مخلوق، ولا يكون مستعداً للمباهاة والمفاخرة إلا بواحد من هذه الأربعة أو بها أجمع".

والحكمة في البهيمية هو: بقاء البدن الذي هو موضوع النفس الناطقة الملكية ومركبها، حتى تتمكن في تلك المدة من تحصيل كمالها، والوصول إلى مقصدها، وذلك أنه لا وصول إلى

---

(١) تقدم تخريج الحديث.

سعادة الآخرة إلا بالعبادة، ولا سبيل إلى العبادة إلا بالحياة [البد]وية التي لا سبيل إليها إلا بحفظ البدن، وذلك يتناول الأغذية التي لا يمكن تناولها إلا بالشهوية، فصارت القوة الشهوية مثل عدو تخشى مضرته من وجه، ومع عداوته لا يستغنى عن الإعانة به بحيث يصدق في ذلك قول أبي الطيب:

وَمِنْ نكَدِ الدُّنيَا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرى
عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ[1]

والحكمة في السبعية هو: تحسر البهيمية وقهرها حتى يندفع الفساد المتوقَّع من استيلائها، وذلك لأن النفس البهيمية غير قابلة للأدب، فيتسلط بقوة الحميَّة على قوة الشهوية حتى تنقمع ولا تميل إلى مقام الأخلاق وسفاسفها، واشتراط التوسط في أفعالها، لئلا يستعبد الناطقة في هوائهما، ويصرفاها عن كمالها ومقصدها، وقد مثل ذلك بفارس استردف سبُعاً للاصطياد، فإن

---

(١) هذا البيت من قصيدة أبي الطيب المتنبي أولها:

أقلُّ فعالي بَلْهَ أكثره مجد ... وذا الجدُّ فيه نلتُ أمْ لَمْ أنلْ جَدُّ
سأطلب حقي بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ

انقاد السبع والبهيمة للفارس واستعملها على ما ينبغي حصل مقصد الكل وإلا هلك الكل.

وقد تَحَصَّل من جملة ما تقدم أن العدالة المراد بها التوسط في الصفات التي هي أمهات الفضائل، أعني: الحكمة والعفة والشجاعة. صفة جامعة لجميع الفضائل، فالجور المقابل لها جامع لجميع الرذائل. ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[١] وقوله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٢] رواه مسلم.

والله سبحانه ولي التوفيق، والهداية إلى الصراط المستقيم، الذي هو الوسط بين الإفراط والتفريط، حتى إذا

---

(١) سورة الحديد: آية [٢٥].

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧) كتاب الأمارة، باب [فضيلة الإمام العادل] عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

حصل ذلك لعبد كمل به كمالاً يُقَرِّبُهُ إلى الله تعالى قرب مكانة ورتبة.

فنسأل الله سبحانه بأنبيائه ورسله وأوليائه وعباده الصالحين أن يرزقنا الاستقامة على الصراط المستقيم، وأن يدخلنا في زمرة المقربين وأن يسلك بنا مسالك أئمة المتقين إنه ولي ذلك والقادر عليه آمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله الطيبين وصحبه الطاهرين.

قال المؤلف شكر الله سعيه نجز تمامها في آخر ساعة من يوم الجمعة ختام ذي القعدة الحرام من عام أحد وأربعين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته أجمعين آمين آمين.

تحريراً في خمسة وعشرين من جمادى الثاني سنة ثلاثة وتسعين وألف.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة